

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة أثر عمل القلب على العبادات
(٥)

أثر عمل القلب على عبادة الذكر والدعاء القسم الأول

د. إبراهيم بن حسن الحضري



رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد
الوطنية ١٤٤٤/١١٤٠٧ بتاريخ
١٤٤٤/١١/٢٩هـ، ورقم ردمك
٩٧٨-٦٠٣-٠٤-٦٣٢٧-٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].
 ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن الاهتمام بذكر أثر عمل القلب على عبادة الذكر والدعاء من أعظم ما ينبغي الاعتناء به، والحرص عليه؛ لأنه الباب المفتوح للدخول على الله والقرب منه ورفعة الدرجات في الآخرة.

وهذا الكتاب الذي أعاني الله عليه، ووفقني لأن أكتبه هو الخامس في هذه السلسلة المباركة (أثر عمل القلب على العبادات) وهو القسم الأول من هذا الكتاب.
 وأسأل الله العظيم بمنه وكرمه أن يرزقني الإخلاص فيه، وأن ينفعني به وكل من قرأه والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الدكتور: إبراهيم بن حسن الحضريتي

إمام وخطيب جامع القنعة بشرائع المجاهدين بمكة المكرمة

ebrahim1407@gmail.com

وعناصر هذا الكتاب تحتوي على تمهيد وعدة مباحث على النحو الآتي:

التمهيد: وفيه مسائل متعلقة بالذكر والدعاء.

المبحث الأول: ملخص في إثبات أثر عمل القلب، وأهميته.

المبحث الثاني: من أعمال القلوب التي لها ارتباط وثيق بعبادة الذكر والدعاء.

المبحث الثالث: أعمال لها ارتباط وثيق بصلاح القلب وزيادة أثره.

المبحث الرابع: أحكام تخص عبادة الذكر أو الدعاء ولها تعلق بعمل القلب.

المبحث الخامس: من فوائد وثمرات تحقيق عمل القلب في عبادة الذكر والدعاء.

المبحث السادس: من أسباب الانحراف في عبادة الذكر والدعاء.

المبحث السابع: من آثار عدم تحقيق عمل القلب في الذكر والدعاء.

أثر عمل القلب على عبادة الذكر والدعاء وفيه تمهيد وعدة مباحث.

التمهيد: وفيه مسائل متعلقة بالذكر والدعاء.

المسألة الأولى: مفهوم الذكر والدعاء والعلاقة بينهما^(١).

تنبيه: على العلاقة بين الذكر والدعاء.

هناك علاقة وثيقة بين الذكر والدعاء وبينهما ترابط وثيق، فالدعاء حين يتوجه به العبد إلى الله فهو ذكر لله فكل دعاء ذكر إذ بينهما عموم وخصوص، لكن إذا نظرت إلى مجرد العبادة فالذكر في جنسه أفضل من الدعاء، " هذا من حيث النظر إلى كل منهما مجزئاً. وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل، بل يعينه، فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل.. " (٢).

وهذه قاعدة مهمة في التفاضل بين الأعمال، معرفتها من الفقه في الدين، ودونك كلام متين عميق في هذه المسألة الدقيقة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، حيث يقول: " الأفضل يتنوع تارة بحسب أجناس العبادات كما أن جنس الصلاة أفضل من جنس القراءة، وجنس القراءة أفضل من جنس الذكر، وجنس الذكر أفضل من جنس الدعاء. وتارة يختلف باختلاف الأوقات كما أن القراءة والذكر والدعاء بعد الفجر والعصر هو المشروع دون الصلاة.

وتارة باختلاف عمل الإنسان الظاهر كما أن الذكر والدعاء في الركوع والسجود هو المشروع دون القراءة وكذلك الذكر والدعاء في الطواف مشروع بالاتفاق، وأما القراءة في الطواف ففيها نزاع معروف.

(١) ينظر: ذكر الله بين الاتباع والابتداع (٣٧-٨٠) رسالة ماجستير في العقيدة، جامعة أم القرى، من إعداد الطالب:

عبد الرحمن محمود خليفة، وهي رسالة قيمة في بابها.

(٢) الوابل الصيب - ط عطاءات العلم (١/ ٢٣١)

وتارة باختلاف الأمكنة: كما أن المشروع بعرفة ومزدلفة وعند الجمار وعند الصفا والمروة هو الذكر والدعاء دون الصلاة ونحوها، والطواف بالبيت للوارد أفضل من الصلاة، والصلاة للمقيمين بمكة أفضل.

وتارة باختلاف مرتبة جنس العبادة: فالجهاد للرجال أفضل من الحج وأما النساء فجهادهن الحج، والمرأة المتزوجة طاعتها لزوجها أفضل من طاعتها لأبويها؛ بخلاف الأيم فإنها مأمورة بطاعة أبويها.

وتارة يختلف باختلاف حال قدرة العبد وعجزه: فما يقدر عليه من العبادات أفضل في حقه مما يعجز عنه وإن كان جنس المعجوز عنه أفضل. وهذا باب واسع يغلو فيه كثير من الناس ويتبعون أهواءهم، فإن من الناس من يرى أن العمل إذا كان أفضل في حقه لمناسبة له ولكونه أنفع لقلبه وأطوع لربه يريد أن يجعله أفضل لجميع الناس ويأمرهم بمثل ذلك، والله بعث محمداً بالكتاب والحكمة وجعله رحمة للعباد وهدياً لهم يأمر كل إنسان بما هو أصلح له، فعلى المسلم أن يكون ناصحاً للمسلمين يقصد لكل إنسان ما هو أصلح له.

وبهذا تبين لك أن من الناس من يكون تطوعه بالعلم أفضل له، ومنهم من يكون تطوعه بالجهاد أفضل، ومنهم من يكون تطوعه بالعبادات البدنية - كالصلاة والصيام - أفضل له. والأفضل المطلق ما كان أشبه بحال النبي صلى الله عليه وسلم باطناً وظاهراً، فإن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، والله سبحانه وتعالى أعلم" أ.هـ. (١)

ومما يدل على أن الله يفتح لعبده ويوفقه لباب خير - وقل من يفتح له في أكثر من باب - ما ورد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ (٢) مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ - يَعْنِي الْجَنَّةِ -: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ،

(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ٤٢٧ - ٤٢٩).

(٢) أي: شيئين من أصناف المال. ينظر: فتح الباري (٧ / ٢٨).

وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ، وَبَابِ الرِّيَّانِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: مَا عَلَى هَذَا الَّذِي يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، وَقَالَ: هَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلُّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ يَا أَبَا بَكْرٍ»^(١).

يقول ابن المبارك رحمه الله عن الإمام مالك: "ما رأيت أحداً ارتفع مثل مالك، ليس له كثير صلاة ولا صيام، إلا أن تكون له سريرة. قلت^(٢): ما كان عليه من العلم ونشره أفضل من نوافل الصوم والصلاة لمن أراد به الله"^(٣). وعلى هذا فعلى من وفقه الله لعمل وفتح عليه فيه أن يشكر ربه على توفيقه له لهذا العمل العظيم، وأن يبذل وسعه فيما فتح له، ويستعين بالله، ويبذل أسباب النجاح في هذا المجال، ومن أعظمها إخلاصه وصدقه مع ربه، وليعلم أنه قد لا يفتح له في باب آخر من أبواب الخير، فعليه ألا يشتت جهده في أبواب لم يفتح له فيها، ولا ينتقص الآخرين الذين فتح لهم في عمل غير عمله، وكذلك ينبغي الحذر من صرف الناس عن أبواب الخير التي فتحت لهم، بحجة أنها أعمال قاصرة غير متعدية النفع، ونحو ذلك من الأخطاء التي يقع فيها البعض. وذكر ابن عبد البر كلاماً متيناً رصيناً في شرحه لحديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق، فقال رحمه الله: "وفي هذا الحديث من الفقه والفضائل الحظ على الإنفاق في سبيل الخير، والحرص على الصوم.

وفيه أن أعمال البر لا يفتح في الأغلب للإنسان الواحد في جميعها، وأن من فتح له في شيء منها حرم غيرها في الأغلب، وأنه قد تفتح في جميعها للقليل من الناس، وأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه من ذلك القليل.

(١) أخرجه البخاري (٦ / ٥) ح (٣٦٦٦)، ومسلم (٢ / ٧١١) ح (١٠٢٧).

(٢) القائل الإمام الذهبي رحمه الله.

(٣) سير أعلام النبلاء (٨ / ٩٧).

وفيه أن من أكثر من شيء عرف به ونسب إليه، ألا ترى إلى قوله: فمن كان من أهل الصلاة، يريد من أكثر منها فنسب إليها؛ لأن الجميع من أهل الصلاة، وكذلك من أكثر من الجهاد ومن الصيام على هذا المعنى ونسب إليه، دعي من بابيه ذلك، والله أعلم. وما يشبه ما ذكرنا ما جاوب به مالك رحمه الله العُمري العابد، وذلك أن عبد الله بن عبد العزيز العُمري العابد كتب إلى مالك يحضّه إلى الانفراد والعمل، ويرغب به عن الاجتماع إليه في العلم، فكتب إليه مالك: إن الله وَعَلَيْكَ قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصيام، وآخر فتح له في الجهاد ولم يفتح له في الصلاة، ونشر العلم وتعليمه من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح الله لي فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير، ويجب على كل واحد منا أن يرضى بما قسم له والسلام.

هذا معنى كلام مالك لأني كتبت له من حفظي، وسقط عني في حين كتابتي أصلي منه^(١).

المسألة الثانية: سعة مفهوم الذكر الشرعي.

وهذه المسألة العظيمة ألخصها في الآتي:

أولاً: الحكمة من خلق الإنس والجن هي القيام بعبادة الله تعالى، كما قال سُبْحَانَكَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي لتكون حياتهم كلها عبادة لله تعالى، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٣٢] لا شريك له﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، والذكر هو روح العبادة فلا قيمة لها إلا به، ولذا هو يشمل كل الحياة، كما أن العبادة تشمل كل حياة الإنسان وكل أحواله.

ثانياً: أن جميع العبادات إنما شرعت لإقامة ذكر الله تعالى، قال سبحانه في بيان ذلك في أعظم وأشرف العبادات بعد التوحيد: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] أي صلِّ لتذكرني وهو

(١) التمهيد (٧/ ١٨٤-١٨٥).

أحد معاني الآية وقدمه ابن جرير وابن كثير^(١)، فالمقصود -والله أعلم- أقم الصلاة لأجل ذكرى، وفي حديث عائشة رضي الله عنه الله عنها يقول ﷺ: "إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَّافُ بِالْكَعْبَةِ، وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَرَمِي الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"^(٢).

ثالثاً: إن التفاضل بين العاملين بالطاعات يكون بكثرة ذكرهم لله الذي يتفق فيه اللسان مع القلب، يقول ابن القيم رحمه الله: "أن أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكراً لله عز وجل، فأفضل الصوام أكثرهم ذكراً لله عز وجل في صومهم، وأفضل المتصدقين أكثرهم ذكراً لله عز وجل، وأفضل الحجاج أكثرهم ذكراً لله عز وجل، وهكذا سائر الأعمال"^(٣).
وعَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَقَالَ: أَيُّ الْجِهَادِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: "أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا" قَالَ: فَأَيُّ الصَّائِمِينَ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: "أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا"، ثُمَّ ذَكَرَ لَنَا الصَّلَاةَ، وَالزَّكَاةَ، وَالْحَجَّ، وَالصَّدَقَةَ كُلُّ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا" فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: يَا أَبَا حَفْصٍ ذَهَبَ الذَّاكِرُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَجَلٌ"^(٤).

(١) ينظر: تفسير ابن جرير (٣٢/١٦)، وتفسير ابن كثير (٢٧٧/٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٧ / ٤١) ح (٢٤٤٦٨)، وأبو داود (١٧٩ / ٢) ح (١٨٨٨)، والترمذي (٢٣٧ / ٣) ح (٩٠٢) وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وابن خزيمة في صحيحه (١٢٩٥ / ٢) ح (٢٧٣٨)، والحاكم (٦٣٠ / ١) ح (١٦٨٥) وصححه وأقره الذهبي، وصحح إسناده محقق صحيح ابن خزيمة ح (٢٧٣٨)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٢ / ١٧٠) ح (٣٢٨) وقال أن الصواب الذي رواه الثقة وقفه على عائشة رضي الله عنها، ومال إلى هذا محقق المسند ح (٢٤٤٦٨)، والعلم عند الله.

(٣) الوابل الصيب - ط عطاءات العلم (١ / ١٨١-١٨٢).

(٤) أخرجه أحمد (٢٤ / ٣٨٠ - ٣٨١ ط الرسالة) ح (١٥٦١٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠ / ٧٤) ح (١٦٧٤٨): "رواه أحمد والطبراني.. وفيه زيان بن فائد، وهو ضعيف، وقد وثق، وكذلك ابن لهيعة، وبقية رجال أحمد ثقات"، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١ / ٤٥٢) ح (٩٠٦)، وضعف إسناده كذلك محقق المسند في الحديث رقم (١٥٦١٤).

رابعاً: ومما يدل على سعة المفهوم الشرعي للذكر، ما ذكره النووي رحمه الله عن القاضي عياض، فقال: "قال القاضي عياض رحمه الله: وذكر الله تعالى ضربان: ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وذكر القلب نوعان أحدهما: وهو أرفع الأذكار وأجلها الفكر في عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته وملكوته وآياته في سمواته وأرضه..

والثاني: ذكره بالقلب عند الأمر والنهي، فيمثل ما أمر به ويترك ما نهي عنه، ويقف عما أشكل عليه، وأما ذكر اللسان مجرداً فهو أضعف الأذكار، ولكن فيه فضل عظيم كما جاءت به الأحاديث" (١).

وقال القرطبي في تفسيره عند قول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]: "ومعنى الآية: اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة، قاله سعيد بن جبير، وقال أيضاً: الذكر طاعة الله، فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن" (٢). وعن الحسن رحمه الله في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، قال: "اذكروني فيما افترضت عليكم، أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي" (٣).

وفي التفسير الكبير عند قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]: "اعلم أن الله تعالى كلفنا في هذه الآية بأمرين: الذكر، والشكر، أما الذكر فقد يكون باللسان، وقد يكون بالقلب، وقد يكون بالجوارح... أما ذكرهم إياه تعالى بجوارحهم، فهو أن تكون جوارحهم مستغرقة في الأعمال التي أمروا بها، وخالية عن الأعمال التي نهوا عنها، وعلى هذا الوجه سمى الله تعالى الصلاة ذكراً بقوله: ﴿فَأَسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، فصار الأمر بقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ متضمناً لجميع الطاعات" (٤).

(١) شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٥) مع تصرف يسير.

(٢) تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٧١).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٦١).

(٤) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٤/ ١٢٣ - ١٢٤) مع بعض التصرف.

خامساً: قال ابن بطال رحمه الله في شرحه على صحيح البخاري: "هذه الفضائل التي جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم: (من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة غفر له...) وما شاكلها إنما هي لأهل الشرف في الدين والكمال والطهارة من الجرائم العظام، ولا يظن أن من فعل هذا وأصرّ على ما شاء من شهواته وانتهك دين الله وحرماته أنه يلحق بالسابقين المطهرين، وينال منزلتهم في ذلك بحكاية أحرف ليس معها تقى، ولا إخلاص، ولا عمل، ما أظلمه لنفسه من يتأول دين الله على هواه" (١).

سادساً: ومما يدل على سعة مفهوم الذكر: تنوعه وشموله لكل تصرفات العبد، وأحواله في يومه وليلته، من حين يستيقظ إلى أن ينام، ولذا سميت الكتب التي جمعت تلك الأذكار بعمل اليوم والليلة، كما في كتاب عمل اليوم والليلة للنسائي، وكذلك عمل اليوم والليلة لابن السني. وقال تعالى عن عباده المؤمنين في كثرتهم ذكرهم الله على كل أحوالهم: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] والآيات بعدها.

وفي هذه الآية بيان لحال هؤلاء الصادقين في حبهم لله بكثرة ذكره الله على كل أحوالهم، فقد انصبغت حياتهم بالذكر على كل الأحوال قياماً، وقعوداً، وعلى جنوبهم من حين أستيقاظهم إلى عودتهم إلى النوم مرة أخرى، وهذه الهيئات لا يخرج عنها حال الإنسان في حال يقظته إما قائم، وإما قاعد، وإما على جنب، وهكذا كان النبي ﷺ كما تصفه عائشة رضي الله عنه الله عنها، فتقول: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ» (٢).

(١) شرح صحيح البخاري - ابن بطال (١٠ / ١٣٤).

(٢) أخرجه مسلم (١ / ٢٨٢) ح (٣٧٣).

المسألة الثالثة: كيف يكون الذكر شرعياً.

تنقسم الأذكار والأدعية إلى قسمين:

الأول: المأثور وهو ما جاء في نصوص الكتاب والسنة، وله أنواع وضوابط سيأتي تفصيلها.

الثاني: غير المأثور وهو من ينشئه العبد من نفسه من ثناء ودعاء، وله كذلك ضوابط وشروط سيأتي الكلام عنها.

القسم الأول: المأثور، وله نوعان:

النوع أول : المأثور من الأذكار والأدعية، وضوابطها.

أولاً: المقصود بها وأمثلة عليها.

الأذكار والأدعية المأثورة هي: ما ورد في القرآن الكريم، والسنة المطهرة من أذكار وأدعية مقيدة بمناسبة أو بغير مناسبة، وجاء الحث على قولها ببيان فضلها، أو وقتها، أو ربطها بمناسبة معينة، ولها أنواع كثيرة، منها على سبيل المثال:

ذكر ركوب الدابة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۚ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢-١٤].

الأذكار المقيدة بوقت أو مكان، مثل أذكار الصباح والمساء، وأذكار النوم، وأذكار الصلوات، وأذكار الخروج من المنزل والسفر ونحوها من أذكار اليوم والليلة.

الأدعية التي جاء النص على قولها في العبادات المفروضة ونوافلها، مثل أدعية الصلاة والحج والعمرة ونحوها.

ثانياً: ضوابط الأذكار والأدعية الماثورة.

ودونك هذه الضوابط التي لا بد من مراعاتها حتى يكون الذكر مشروعاً:

- أن تكون مما جاء في كتاب الله أو مما صح من سنة رسول الله ﷺ.
- أن يحرص على إخلاص النية لله تعالى، والمتابعة لهدي النبي ﷺ في هذه الأذكار من حيث:

أن يلتزم بالأذكار المقيدة كما وردت في نص الكتاب والسنة، فيشتغل بالذكر المقيد في وقته ومناسبته.

وأن يبقى الذكر المطلق على إطلاقه فلا يقيده بمناسبة ولا هيئة ولا عدد لم يقيده به النص الشرعي.

- أن يلتزم بالعدد واللفظ المحدد الذي ربط النص الأجر به، فلا يزيد ولا ينقص، كالمأثور عقب الصلاة من الأذكار، وأذكار المساء والصباح، وأذكار النوم، وغيرها.
- أن يتقيد بالألفاظ التي وردت في النص، ويحرص على أدائها كما هي، فلا يزيد ولا ينقص ولا يغير اللفظ، كألفاظ الأذان والإقامة، والتشهد والتلبية، إلا ما جاء النص بالسماح بالزيادة فيه عن العدد المحدد^(١).

ومما يدل على ذلك، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلِ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. فَإِنْ مِتُّ مِنْ لَيْلَتِكَ، فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ. قَالَ: فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

(١) ومثاله: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةِ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدَلٌ عَشْرَ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَكُتِبَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ وَكَانَتْ لَهُ حِزْبًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ» أخرجه البخاري بهذا اللفظ (٤/ ١٢٦ ط السلطانية) ح (٣٢٩٣)، ومسلم (٨/ ٦٩ ط التركية) ح (٢٦٩١).

فَلَمَّا بَلَغْتُ: اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، قُلْتُ: وَرَسُولِكَ، قَالَ: لَا، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»^(١).

دل هذا على أن هذه الألفاظ توقيفية، لها خصائص وأسرار لا يدخلها القياس، فتجب المحافظة على اللفظ الذي وردت به^(٢)، والله أعلم.

وقال الشيخ محمد بن علي الإثيوبي رحمه الله في شرحه على مسلم عند شرح هذا الحديث: "قال الجامع عفا الله عنه: عندي أن أحسن ما قيل في حكمة النهي عن إبدال النبي بالرسول في هذا الحديث كون ألفاظ الأذكار توقيفية، كما قال المازري^(٣)، فتجب المحافظة على اللفظ الوارد فيها، ولو ظن أن ما يرادفها من الألفاظ يؤدي معناها؛ لأن التعبد وقع على لفظها، كما وقع على معناها، فالواجب الوقوف على التعليم النبوي، والله تعالى أعلم"^(٤).

- مراعاة آداب الذكر العامة، وسيأتي بعض ذلك.

النوع الثاني: الأذكار المطلقة، وتفاضلها.

ويقصد بها ما ورد من الأذكار الماثورة، والأدعية التي نص عليها الشرع، ولم ترتبط بسبب، ولا مناسبة، ولا هيئة، ولا عدد، وهي كثيرة ومنها على سبيل المثال:

أولاً: يأتي على رأسها، وأفضلها على الإطلاق، وأعلاها منزلة تلاوة القرآن الكريم بالتدبر، ومكانة تلاوة القرآن في الفضل لا تخفى على مسلم، وقد وفقني الله لكتابة بحث بعنوان: أثر عمل القلب على تلاوة القرآن وتدبره وهو موجود على الشبكة^(٥).

ثانياً: الأذكار الماثورة التي تلي القرآن في الأفضلية^(٦):

وأفضلها ما كان فيه ثناء على الله تعالى.

(١) أخرجه البخاري (١/ ٥٨ ط السلطانية) ح (٢٤٧)، ومسلم (٨/ ٧٧ ط التركية) ح (٢٧١٠).

(٢) ينظر: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج (٤٢/ ٢٩٤).

(٣) ينظر: المعلم بفوائد مسلم (٣/ ٣٣٠).

(٤) البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج (٤٢/ ٢٩٤).

(٥) انظره على موقع شبكة الألوكة.

(٦) ينظر في هذه الأقسام مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٤٢-٣٤٣).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "أنواع الأذكار مطلقاً بعد القرآن، أعلاها ما كان ثناءً على الله" (١)، من مثل ماورد في دعاء الاستفتاح: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ» (٢).

ثم ما كان إنشاءً من العبد، مثل حديث دعاء النوم الذي سبق "وجهت وجهي إليك..".
ثم ما كان دعاءً من العبد، مثل قوله ﷺ في دعاء الاستفتاح: «اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا تُنَقِّي الثَّوْبَ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنَ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرْدِ» (٣).
القسم الثاني: غير المأثور وضوابطه.

أولاً: المقصود به هو ما ينشئه العبد من ذكر مطلق لحاجة تعرض له، فيدعو ربه بلفظ من عنده (٤).

مما ينبغي التنبيه عليه هنا ضرورة لزوم الهدي النبوي في الذكر والدعاء لأتقنهما عبادة، والعبادة تبني على التوقيف والاتباع، لا على الهوى والابتداع، وقد جاء البيان عن ذلك في الكتاب والسنة شافياً كافياً، فلا مجال للزيادة عليه، "ولهذا فإن المتأكد على كل مسلم في هذا الباب العظيم أن يجتهد في طلب هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء، وأن يحرص أشد الحرص على معرفة سبيله فيه؛ ليقف آثاره، وليسير على نهجه، ويلزم طريقته صلوات الله وسلامه عليه.

(١) مجموع الفتاوى (٢٢ / ٣٧٦).

(٢) أخرجه أبو داود (١ / ٢٠٦ ت محيي الدين عبد الحميد) ح (٧٧٦)، والترمذي (٢ / ١١ ت شاكر) ح (٢٤٣)، وابن ماجه (١ / ٢٦٤ ت عبد الباقي) ح (٨٠٤)، والحاكم (١ / ٣٦٠) ح (٨٥٩) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢ / ٨٥٣) ح (٤٦٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (١ / ١٤٩ ط السلطانية) ح (٧٤٤)، ومسلم (٢ / ٩٨ ط التركية) ح (٥٩٨).

(٤) ينظر: فقه الأدعية والأذكار (٢ / ٤٩ - ٥٣).

ولا يجوز لمسلم أن يلتزم أدعية راتبة أو مخصصة بأوقات معينة أو بصفات معينة سوى ما ورد من ذلك في سنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، أما الأدعية العارضة التي تحصل من المسلم بسبب أمور قد تعرض له، فله أن يسأل الله ما شاء فيما لا يتنافى مع الشرع. ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الأذكار والدعوات من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على الاتباع، وليس لأحد أن يسن منها غير المسنون، ويجعله عادة راتبة يواظب الناس عليها، بل هذا ابتداع دين لم يأذن به الله، بخلاف ما يدعو به المرء أحياناً من غير أن يجعله سنة" (١) اهـ.

ولهذا نجد أن الصحابة رضي الله عنهم بادروا إلى إنكار تخصيص هيئات معينة للأذكار والأدعية، أو أوقات معينة أو نحو ذلك مما لم يرد به الشرع ولم تثبت به السنة، ومن ذلكم إنكار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على أولئك نفر الذين تحلقوا في المسجد وفي أيديهم حصى يسبحون بها ويهللون ويكبرون بطريقة محدثة وصفة مبتدعة، لم تكن موجودة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبادرهم بالإنكار ونهاهم عن ذلك أشد النهي، وبين لهم خطورة ذلك وسوء مغبته عليهم، روى الإمام الدارمي رحمه الله بإسناد جيد عن عمرو بن سلمة الهمداني قال: "كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَبْلَ صَلَاةِ الْعَدَاةِ، فَإِذَا خَرَجَ مَشِينَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فَقَالَ: أَخْرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ؟ قُلْنَا: لَا، فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعاً، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ أَنْفَاءً أَمْراً أَنْكَرْتُهُ، وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَّا خَيْراً، قَالَ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: إِنَّ عِشْتَ فَسْتَرَاهُ، قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْماً حَلَقاً جُلُوساً يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ، فِي كُلِّ حَلَقَةٍ رَجُلٌ، وَفِي أَيْدِيهِمْ (حَصَى) فَيَقُولُ: كَبِّرُوا مِائَةً، فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِائَةً، فَيَهْلِلُونَ مِائَةً، وَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِائَةً فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً، قَالَ: فَمَاذَا قُلْتُمْ لَهُمْ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَهُمْ

(١) مجموع مؤلفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب "ملحق المصنفات" (ص: ٤٦) في ضمن فوائد عديدة لخصها رحمه الله من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

[والذي يظهر أنه منقول بالمعنى من كلام شيخ الإسلام. ينظر: مجموع الفتاوى (٥١١/٢٢).]

شَيْئاً انْتِظَارَ رَأْيِكَ أَوْ انْتِظَارَ أَمْرِكَ*، قَالَ: أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ، وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ، ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلَقَةً مِنْ تِلْكَ الْحَلَقِ، فَوَقَّفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصَى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ، قَالَ: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ، وَيُحْكُمُ* يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَسْرَعَ هَلَكْتُكُمْ، هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مُتَوَافِرُونَ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبَلْ وَأَنِيتُهُ لَمْ تُكْسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي فِي يَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ، أَوْ مُفْتَتِحُوا بَابَ ضَلَالَةٍ، قَالُوا: وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْحَيْرَ، قَالَ: وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْحَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ^(١).

فتأمل كيف أنكر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على أصحاب الحلقات هؤلاء، مع أنهم في حلقة ذكر ومجلس عبادة لما كان ذكرهم لله وتعبدهم له بغير الوارد المشروع، وفي هذا دلالة على أنه ليس العبرة في العبادة والدعاء والذكر كثرته، وإنما العبرة في موافقته للسنّة، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه في مقام آخر: «اِقْتَصَادٌ فِي سَنَةِ خَيْرٌ مِنْ اجْتِهَادٍ فِي بِدْعَةٍ»^(٢)، وابن مسعود رضي الله عنه لم ينكر عليهم ذكرهم لله واشتغالهم بذلك، وإنما أنكر عليهم مفارقتهم للسنّة في صفة أدائه وكيفية القيام به مع أن الألفاظ التي كانوا يذكرون الله بها ألفاظ صحيحة وردت بها السنّة، فكيف الحال بمن ترك السنّة في ذلك جملة وتفصيلاً في الألفاظ وصفة الأداء وغير ذلك، كالأوراد التي يقرؤها بعض الناس مما كتبه بعض أشياخ الطرق الصوفية بصيغ مختلفة وأساليب متنوعة مما هو متضمن لأنواع من الباطل وصنوف من الضلال كالتوسلات الشركية والألفاظ البدعية والأذكار المحدثّة، ويرتب هؤلاء لأورادهم وظائف محدّدة وصفات معينة وأوقات ثابتة، وهذا كله ولا ريب من الإحداث في الدين، ومن المفارقة لسبيل سيد الأنبياء والمرسلين، والاستعاضة عنه بما أحدثه شيوخ الضلال وأئمة الباطل، وهو تشريع في الدين بما لم

(١) أخرجه الدارمي - ت الزهراني (١/ ١٢٠) رقم الأثر (٢١١)، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥/

١١-١٢) ح (٢٠٠٥) وقال: "وهذا إسناد صحيح".

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٢٠٧).

يأذن به الله، والله تعالى يقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، ثم تجدهم مع ذلك يعظمون أورادهم هذه ويعلمون من شأنها، ويرفعون من قدرها، ويقدمونها على الأوراد الصحيحة والأدعية الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق وأكملهم ذكرا ودعاء لربه سبحانه.

قال القاضي عياض رحمه الله: "أذن الله في دعائه، وعلم الدعاء في كتابه لخليقته، وعلم النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء لأئمة، واجتمعت فيه ثلاثة أشياء: العلم بالتوحيد، والعلم باللغة، والنصيحة للأمة، فلا ينبغي لأحد أن يعدل عن دعائه صلى الله عليه وسلم، وقد احتال الشيطان للناس من هذا المقام، فقيض لهم قوم سوء يخترعون لهم أدعية يشتغلون بها عن الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم" (١).

وقال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره الجامع لأحكام القرآن: "فعلى الإنسان أن يستعمل ما في كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء ويدع ما سواه، ولا يقول أختار كذا؛ فإن الله قد اختار لنبيه وأوليائه وعلمهم كيف يدعون" (٢). فالواجب على من أراد لنفسه الفضيلة والسلامة والتمام والرفعة أن يلزم هدي النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ويتقيد بسنته، ويدع ما أحدثه المحدثون وأنشأه المبطلون مما لا أصل له ولا أساس إلا اتباع الأهواء" انتهى بطوله لأهميته من كتاب فقه الأدعية والأذكار (٣).

ثانياً: ضوابط الذكر الذي يخترعه العبد.

ودونك ملخصة من كتاب ذكر الله بين الاتباع والابتداع (٤):

- الإخلاص لله تعالى، وتوجه القلب إليه والحذر من الشوائب التي تنقض الإخلاص.

(١) نقله عن القاضي عياض صاحب الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية (١ / ١٧).

(٢) تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن (٤ / ٢٣١).

(٣) فقه الأدعية والأذكار (٢ / ٤٩ - ٥٣).

(٤) ينظر: ذكر الله تعالى بين الاتباع والابتداع (٩١ - ٩٢).

- أن يكون الذكر المنشأ غير مقيد بزمان ولا مكان ولا هيئة ولا عدد، إذ كل ما سبق من خواص الشرع التي لا منازعة فيها.
 - أن يكون المنشأ متضمناً على الله بما هو أهله، وفي حال النفي عن الله يقتصر على ما ورد نفيه.
 - أن يحرص على سلامة اللفظ من أن يستلزم نقصاً في حق الله سبحانه بأي وجه من الوجوه.
 - أن تكون ألفاظ ما ينشأ واضحة بينة، فلا تكون أسماء غير معروفة، أو ألفاظاً غريبة، أو طلاسماً لا يعرف ما هي.
 - أن تكون معاني ما ينشأ جامعة ومانعة وبينية، ثناء كان أو دعاء.
 - وإذا كان المنشأ دعاء، فعلى الداعي أن يراعي في ذلك الآتي:
 - ١- أن يحرص على عدم الاعتداء في دعائه، ويعلم أن الاعتداء يكون في الألفاظ أو في المعاني لتجنب ذلك.
 - ٢- أن يتعد في دعائه من السجع المتكلف والتعقر في الألفاظ، ويعد ذلك من العدوان في الدعاء، قال النووي رحمه الله: "أن لا يتكلف السجع، وقد فسّر به الاعتداء في الدعاء، والأولى أن يقتصر على الدعوات الماثورة، فما كل أحد يُحسن الدعاء، فيخاف عليه الاعتداء" (١) (٢).
- وسياًتي مزيد تفصيل لهذا في آداب الدعاء.

المسألة الرابعة: التفاضل بين الأذكار المقيدة والأذكار المطلقة.

هذه مسألة تحتاج إلى فقه كما سبق ولا شك أن الذكر المقيد أفضل من الذكر المطلق، ولكن قد يعرض للعبد ما يجعل المفضول أولى من الفاضل لسبب يخصه، يقول ابن القيم رحمه الله: "

(١) الأذكار للنووي ت الأرئوط (ص ٣٩٦).

(٢) ينظر: ذكر الله تعالى بين الاتباع والابتداء (٩١-٩٢).

وهكذا الأذكار المفيدة بمحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة، والقراءة المطلقة أفضل من الأذكار المطلقة، اللهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن. مثاله أن يتفكر في ذنوبه فيحدث ذلك له توبة من استغفار أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن فيعدل إلى الأذكار والدعوات التي تحصنه وتحفظه.

وكذلك أيضاً قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها أو ذكر لم يحضر قلبه فيهما، وإذا أقبل على سؤالها والدعاء إليها اجتمع قلبه كله على الله تعالى وأحدث له تضرعاً وخشوعاً وابتهالاً، فهذا يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع، وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجراً.

وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نفس، وفرقان بين فضيلة الشيء في نفسه وبين فضيلته العارضة، فيعطي كل ذي حق حقه، ويوضع كل شيء موضعه^(١).

المسألة الخامسة: من آداب الذكر والدعاء^(٢).

وهذه الآداب في مجملها لها تعلق وثيق بالدعاء، وهي:

١- الإخلاص لله والمتابعة للنبي ﷺ، وقد سبق الكلام على ذلك، وسيأتي له مزيد بيان.

٢- أن يبدأ بحمد الله، والثناء عليه، ثم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ويختتم بذلك.

وقد دل على ذلك: عَنْ عَلِيٍّ - يَغْنِي ابْنُ أَبِي طَالِبٍ - قَالَ: "كُلُّ دُعَاءٍ مَحْجُوبٌ حَتَّى يُصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلِ مُحَمَّدٍ"^(٣).

(١) الوابل الصيب - ط دار الحديث (ص ٩١-٩٢).

(٢) ينظر: الدعاء من الكتاب والسنة (ص ٨-١٠).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (١/ ٢٢٠) ح (٧٢١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٣٥ ط الرشد) ح (١٤٧٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٦٠) ح (١٧٢٧٨): "رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ"، وذكره

عن فضالة بن عبيد، يقول: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو في صلاته فلم يُصلِّ على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «عجل هذا»، ثم دعاه فقال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم ليصل على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ليدع بعد بما شاء»^(١).

٣- الجزم في الدعاء، واليقين بالإجابة.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقول: اللهم إن شئت فأعطني، فإنه لا مستكره له»^(٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يقول أحدكم اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مكره له»^(٣). ولا بد أن يكون الداعي على ثقة بربه، قلبه متعلق به، على يقين بأن الله سيجيب دعوته، وهو يشعر بقربه منه، فيدعو وهو موقن بالإجابة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥/ ٥٤) ح (٢٠٣٥) وقال (٥/ ٥٥): "وهو في حكم المرفوع لأن مثله لا يقال من قبل الرأي كما قال السخاوي".

(١) أخرجه أحمد (٣٩/ ٣٦٣ ط الرسالة) ح (١)، وأبو داود (٢/ ٧٧ ت محيي الدين عبد الحميد) ح (١٤٨١)، والترمذي (٥/ ٥١٧ ت شاكر) ح (٣٤٧٧) وقال عنه: "حسن صحيح"، وابن خزيمة ط ٣ (١/ ٣٧٣) ح (٧١٠)، والحاكم - ط العلمية (١/ ٣٥٤) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ط غراس (٥/

٢٢١) ح (١٣٣١). وقال محقق المسند: "إسناده صحيح..".

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٧٤ ط السلطانية) ح (٦٣٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٧٤ ط السلطانية) ح (٦٣٣٩).

وقال ﷺ: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُؤْفِقُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»^(١).

٤- الإلحاح في الدعاء مع إظهار الفقر والحاجة وعدم الاستعجال.

الإلحاح على الله في الدعاء مع إظهار فقره وحاجته إلى ربه، ومنه إظهار موسى لفقره إلى ربه في دعائه، قال تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

والله يحب من عبد أن يتضرع له ويظهر فقره وذله ومسكنته^(٢) ويلج في طلبه من ربه، وهذا مما يجعل العبد يخشع في دعائه، ويشعر بقرب الله منه، فيزداد إقبالاً على الدعاء. ومن ذلك الإكثار في الدعاء بقول: "يا ذا الجلال والإكرام" وتكرار الدعاء به، يقول ﷺ: "أَلْطُوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ"^(٣). وعن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»^(٤). وهذا من موانع إجابة الدعاء لأنه يستحسر ويدع الدعاء، ولا يوفقه الله للدعاء بسبب ذلك.

(١) أخرجه أحمد (٢٣٥ / ١١) ح (٦٦٥٥)، والترمذي واللفظ له (٥١٧ / ٥) ح (٣٤٧٩) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، والحاكم (١ / ٦٧٠) ح (١٨١٧) وقال: "هذا حديث مستقيم الإسناد تفرد به صالح المري، وهو أحد زهاد أهل البصرة، ولم يخرجاه"، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ١٤٨) ح (١٧٢٠٣): "رواه أحمد، وإسناده حسن". والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١ / ١٠٨) ح (٢٤٥) وذكره في السلسلة الصحيحة (٢ / ١٤١) ح (٥٩٤).

(٢) ينظر: تفسير السعدي (٦١٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٣٨ / ٢٩) ح (١٧٥٩٦)، الترمذي (٥٤٠ / ٥) ح (٣٥٢٥)، وصححه الحاكم (١ / ٦٧٦) ح (١٨٣٦) وأقره الذهبي، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤ / ٥١) ح (١٥٣٦)، وقال محقق المسند ح (١٧٥٩٦): "إسناده صحيح، رجاله ثقات".

(٤) أخرجه البخاري واللفظ له (٨ / ٧٤ ط السلطانية) ح (٦٣٤٠)، ومسلم (٨ / ٨٧ ط التركية) ح (٢٧٣٥).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: « لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِسْمِي، أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمِي، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَيَدْعُ الدُّعَاءَ»^(١).

٥- حضور القلب في الدعاء.

وهو من أعظم استجابة الدعاء، ومن أعظم آدابه، ويدل عليه الحديث السابق «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٌ غَافِلٌ لَاهٍ». "ولهذا فإن من الضوابط المهمة والشروط العظيمة التي لا بد من توفرها في الدعاء حضور قلب الداعي وعدم غفلته؛ لأنه إذا دعا بقلب غافل لاه ضعفت قوة دعائه، وضعف أثره، وأصبح شأن الدعاء فيه بمنزلة القوس الرخو جداً، فإنه إذا كان كذلك خرج منه السهم خروجاً ضعيفاً، فيضعف بذلك أثره، ولهذا فإنه قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم الحث على حضور القلب في الدعاء، والتحذير من الغفلة، والإخبار بأن عدم ذلك مانع من موافقة قبوله"^(٢).

٦- الدعاء في الرخاء والشدة.

"فمن آداب الدعاء المهمة أن لا يقتصر المسلم على دعائه ربه في حال الشدة فقط، بل الواجب أن يدعوه ربه في سرائه وضرائه، وشدته ورخائه، وصحته وسقمه، وفي أحواله كلها، وملازمة المسلم للدعاء حال الرخاء، ومواظبته عليه في حال السراء سبب عظيم لإجابة دعائه عند الشدائد والمصائب والكرب"^(٣)، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»^(٤).

(١) أخرجه مسلم (٨/ ٨٧ ط التركية) ح (٢٧٣٥).

(٢) فقه الأدعية والأذكار (٢/ ١٥٠).

(٣) فقه الأدعية والأذكار (٢/ ١٦٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٦٢ ت شاكر) ح (٣٣٨٢)، وقال: "هذا حديث غريب"، ومسنده أبي يعلى (١١/ ٢٨٤ ت حسين أسد) ح (٦٣٩٧)، والمستدرک علی الصحیحین للحاکم - ط العلمية (١/ ٧٢٩) ح (١٩٩٧) وصححه وأقره الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٧٨) ح (٦٢٩٠).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: "تَعَرَّفَ إِلَيْهِ فِي الرَّحَاءِ، يَعْرِفُكَ فِي الشِّدَّةِ"^(١).

٧- الدعاء عبادة خالصة لله تعالى.

الدعاء من أعظم العبادات بل هو رأس العبادة، ولهذا فهو حق خالص لله تعالى، فلا يدعى إلا هو وحده لا شريك له، فعَنْ التُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]^(٢).

قال الشيخ عبد الرزاق البدر حفظه الله في كتابه الماتع فقه الأدعية والأذكار كلاماً رائعاً في هذه المسألة أحب أن أنقله بطوله: "ولهذا فقد تواترت الأدلة وتضافرت النصوص في الكتاب والسنة على التحذير من صرف الدعاء لغير الله والنهي عن ذلك ودم فاعله بأشد أنواع الدم، حتى صار ذلك من ضروريات هذا الدين التي لا يرتاب فيها كل من فهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد تنوعت دلالات نصوص القرآن الكريم المشتملة على ذلك وتكررت في مواطن كثيرة، وذلك لشدة خطورة دعاء غير الله، ولكونه أكثر أنواع الشرك وقوعاً، حتى قال بعض أهل العلم: " لا نعلم نوعاً من أنواع الكفر والردة ورد فيه من النصوص مثل ما ورد في دعاء غير الله بالنهي عنه والتحذير من فعله والوعيد عليه "^(٣).

فمن هذه النصوص قول الله تبارك وتعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ [الأعراف: ٥٥-٥٦]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا

(١) أخرجه أحمد ط الرسالة (١٩ / ٥)، وقال محقق المسند: "حديث صحيح".

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٠ / ٣٠) ح (١٨٣٩١)، وأبو داود (٧٦ / ٢) ح (١٤٧٩)، والترمذي (٣٧٥ / ٥) ح

(٣٢٤٧) وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وابن ماجه (١٢٥٨ / ٢) ح (٣٨٢٨)، والحاكم (٦٦٧ / ١) ح

(١٨٠٢) وصححه، وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤١ / ١) ح (٣٤٠٧)، وقال محقق المسند

(٣٤٠ / ٣٠) ح (١٨٣٩١): "إسناده صحيح".

(٣) النبذة الشريفة النفيسة في الرد على القبوريين، للشيخ حمد بن ناصر بن عثمان آل معمر (ص: ٣٧).

الرَّحْمَنُ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿[الإسراء: ١١٠]﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[غافر: ٦٥]﴾.

قال الشوكاني رحمه الله في رسالة له في وجوب توحيد الله عز وجل بعد أن أورد طرفاً من هذه النصوص: " فهذه الآيات البينات دلت على أن الدعاء مطلوب لله عز وجل من عباده،

وهذا القدر يكفي في إثبات كونه عبادة، فكيف إذا انضم إلى ذلك النهي عن دعاء غير الله

سبحانه، قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿لَهُ

دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]، وقال

سبحانه ناعياً على من يدعو غيره ضارباً له الأمثال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا

لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

فكيف إذا صرح القرآن الكريم بأن الدعاء عبادة تصريحاً لا يبقى عنده ريب لمرتاب، قال

الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فقد طلب الله سبحانه من عباده في

هذه الآية أن يدعوه، وجعل جزاء الدعاء له منهم الإجابة منه فقال: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾،

ولهذا جزمه لكونه جواباً للأمر، ثم توعدهم على الاستكبار عن هذه العبادة . أعني الدعاء . بما

صرح به في آخر الآية وجعل العبادة مكان الدعاء تفسيراً له وإيضاحاً لمعناه، وبيانا لعباده بأن

هذا الأمر الذي طلبه منهم وأرشدهم إليه هو نوع من عبادته التي خص بها نفسه وخلق لها

عباده كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومع

هذا كله فقد جاءت السنة المطهرة بما يدل أبلغ دلالة على أن الدعاء من أكمل أنواع العبادة ... " (١)، ثم ذكر رحمه الله ما يدل على ذلك من السنة.

إن الواجب على كل مسلم أن يدرك خطورة الأمر، وأن يعلم أن هذا حق خالص لله عز وجل لا يجوز أن يشرك معه فيه غيره، وكيف يشرك المخلوق الضعيف العاجز بالملك العظيم الذي بيده أزمة الأمور، المتفرد بإجابة الدعاء وكشف الكروب، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، الذي ما تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة، ولا ذليل إلا أناله العزة، ولا فقير إلا أعطاه الغنى، ولا مستوحش إلا آنسه، ولا مغلوب إلا أيده ونصره، ولا مضطر إلا كشف ضره، ولا شريد إلا آواه، فهو سبحانه الذي يجيب المضطرين، ويغيث الملهوفين، ويعطي السائلين، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، لا إله إلا هو الملك الحق المبين.

وقد أجمع أهل العلم على أن من صرف شيئاً من الدعاء لغير الله فهو مشرك بالله العظيم، ولو قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولو صلى وصام؛ إذ شرط الإسلام أن لا يعبد إلا الله، فليحذر من يريد لنفسه الفوز والسعادة من هذا الإثم المبين والخطر العظيم" (٢).

٨- عدم الدعاء على الأهل، والمال، والولد، والنفس.

ومن الآداب المهمة: حرص الداعي على عدم الدعاء على أهله وولده، وماله، ونفسه، حين يحصل الغضب، فقد يستجاب له فيحصل له بذلك شقاء في نفسه أو ولده، فيتقطع قلبه حسرات على ما يحصل من آثار دعوته عليهم، وهذا يحصل بسبب عجلة الإنسان بسبب غضبه فيطلق الدعوات فيهلك نفسه، أو أهله أو ولده أو نحوه فيندم على ذلك ندماً عظيماً، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، وقال ابن جرير في تفسيره لهذه الآية: "يقول تعالى ذكره مذكراً عباده أياديهم عندهم، ويدعو

(١) رسالة في وجوب توحيد الله عز وجل، للشوكاني (ص: ٥٦ - ٥٨).

(٢) فقه الأدعية والأذكار (٢ / ٤٠ - ٤٣).

الإنسان على نفسه وولده وماله بالشر، فيقول: اللهم أهلكه والعنه عند ضجره وغضبه، كدعائه بالخير: يقول: كدعائه ربه بأن يهب له العافية، ويرزقه السلامة في نفسه وماله وولده، يقول: فلو استجيب له في دعائه على نفسه وماله وولده بالشر كما يستجاب له في الخير هلك، ولكن الله بفضله لا يستجيب له في ذلك. وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل..^(١)، ثم نقل بأسانيده عن أهل التفسير، ومن ذلك: "عن قتادة، قوله: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾: "يدعو على ماله، فيلعب ماله وولده، ولو استجاب الله له لأهلكه" عن مجاهد، ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ قال: "ذلك دعاء الإنسان بالشر على ولده وعلى امرأته، فيعجل: فيدعو عليه، ولا يجب أن يصيبه"^(٢).

وجاء نص من السنة في التحذير من ذلك، فقال ﷺ: "لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُؤَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ"^(٣).

"ولهذا ينبغي على المسلم أن يعود نفسه الدعاء لنفسه وولده وماله بالخير والنماء والبركة والصلاح ونحو ذلك، وأن يملك نفسه ولا سيما عند غضبه من أن يدعو على نفسه أو ولده أو ماله بالهلاك أو الشر أو الفساد، فقد يستجاب له في ذلك فيندم ويتحسر، مع أنه هو الذي دعا بذلك وطلبه، وإنا لنترجو الله أن يهدينا جميعا سواء السبيل، وأن يوفقنا لكل خير يحبه ويرضاه في الدنيا والآخرة"^(٤).

(١) تفسير الطبري جامع البيان - ط هجر (١٤ / ٥١٢).

(٢) تفسير الطبري جامع البيان - ط هجر (١٤ / ٥١٣-٥١٤).

(٣) أخرجه مسلم (٨ / ٢٣٣ ط التركية) ح (٣٠١٤).

(٤) فقه الأدعية والأذكار (٢ / ٢٥٩).

٩ - خفض الصوت بالدعاء بين المخافة والجهر.

وقد أدب الله عباده عند دعائهم وذكرهم الله أن يتعدوا عن الجهر والعلانية التي يخاف منها الرياء، بل خفية وإخلاصاً لله تعالى^(١).

قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

فأمر الله عبده ورسوله محمداً أصلاً وغيره تبعاً له، بذكر ربه في نفسه، أي: مخلصاً خالياً^(٢)، لأن خفض الصوت بالدعاء أبعد عن الرياء، وأيضاً قد جاء النهي عنه، ففي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال لهم رسول الله لما ارتفعت أصواتهم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْزِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُم لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ»^(٣).

يقول الحسن البصري رحمه الله: "ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدر على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدأً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾"^(٤).

قال ابن جريج رحمه الله: «.. يكره رفع الصوت والنداء والصياح بالدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة»^(٥).

(١) ينظر: تفسير السعدي (١٩٢).

(٢) ينظر: تفسير السعدي (ص ٣١٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ٥٧ ط السلطانية) ح (٢٩٩٢).

(٤) تفسير الطبري جامع البيان - ط هجر (١٠/ ٢٤٨).

(٥) تفسير الطبري جامع البيان - ط هجر (١٠/ ٢٤٩).

ودونك تلخيصاً لكلام شيخ الإسلام رحمه الله الرائع العميق في بيان فوائد إخفاء الدعاء، يقول: "وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيماناً؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي.

ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم لأن الملوك لا ترفع الأصوات عندهم، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، والله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه وخشع صوته؛ حتى أنه ليكاد تبلغ ذلته وسكينته وضراعتة إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق. وقلبه يسأل طالباً مبتهاً ولسانه لشدة ذلته ساكتاً وهذه الحال لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعو سبحانه.

سادسها: - وهو من النكت البديعة جداً - أنه دال على قرب صاحبه للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد؛ ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله عز وجل: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَنِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته، فإنه قد يمل اللسان وتضعف قواه، وهذا نظير من يقرأ ويكرر فإذا رفع صوته فإنه لا يطول له؛ بخلاف من خفض صوته.

ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد، فلا يحصل على هذا تشويش ولا غيره، وإذا جهر به فرطت له الأرواح البشرية ولا

بد ومانعته وعارضته ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفزع عليه همته؛ فيضعف أثر الدعاء ومن له تجربة يعرف هذا فإذا أسر الدعاء أمن هذه المفسدة.

تاسعها: أن أعظم النعمة الإقبال والتعبد ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فإن أنفس الحاسدين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] الآية. وكم من صاحب قلب [مجتمع على الله]، وحال مع الله تعالى قد تحدث بها وأخبر بها، فسلبه إياها الأغيار [لحسدهم له]؛ ولهذا يوصي العارفون والشيخوخ بحفظ السر مع الله تعالى ولا يطلع عليه أحد والقوم أعظم شيئاً كتماناً لأحوالهم مع الله ﷻ، وما وهب الله من محبته والأنس به [واجتماع القلب عليه] ^(١) إلى آخر كلامه رحمه الله.

وقد مر معنا قريباً كلام الحسن البصري رحمه الله في هذا المعنى الذي في آخر كلام شيخ الإسلام ونعيده هنا حيث يقول: "ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرُون على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾" ^(٢).

١٠ - الاعتراف بالذنب، والاستغفار منه، والاعتراف بالنعمة، وشكر الله عليها.

كما في حديث شداد بن أوس رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأُبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١٥ / ١٥ - ١٨) مع بعض التصرف، حيث أضفت بعض التفسيرات القليلة، وجعلتها بين معكوفتين [].

(٢) تفسير الطبري جامع البيان - ط هجر (١٠ / ٢٤٨).

يُتَمَسِّي فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(١).

يقول ابن القيم رحمه الله: "فإن العارفين كلهم مجتمعون على أن لا يكللك الله تعالى إلى نفسك، والخذلان: أن يكللك الله تعالى إلى نفسك.

فمن أراد الله به خيراً فتح له باب الذل والانكسار، ودوام اللجأ إلى الله تعالى، والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه، وجهلها، وظلمها، وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه، وإحسانه، ورحمته، وجوده، وبره، وغناه، وحمده.

فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين، لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتى فاته واحد منهما، فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

قال شيخ الإسلام^(٢): "العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة، ومطالعة عيب النفس والعمل". وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح، حديث "«سَيِّدُ الْإِسْتِعْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أُبَوِّئُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأُبَوِّئُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»".

فجمع في قوله صلى الله عليه وسلم: "أُبَوِّئُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأُبَوِّئُ لَكَ بِذَنْبِي" بين مشاهدة المنة، ومطالعة عيب النفس والعمل.

فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان.

ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار، والافتقار والتوبة في كل وقت، وأن لا يرى نفسه إلا مفلساً.

(١) أخرجه البخاري (٦٧ / ٨) ط السلطانية (٦٣٠٦).

(٢) قال محقق الكتاب الوابل الصيب يقصد شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي وليس ابن تيمية. ينظر حاشية الوابل الصيب (١٠-١١).

وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى باب الإفلاس، فلا يرى لنفسه حالاً، ولا مقاماً، ولا سبباً يتعلق به، ولا وسيلة منه يمين بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف، والإفلاس المحض، دخول من قد كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع، وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل وكمال فاقتته وفقره إليه، وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة، وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك، وخسر خسارة لا تجبر؛ إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته^(١).

١١ - عدم تكلف السجع في الدعاء.

الدعاء عبادة لها تعلق وثيق بالقلب، وتكلف السجع في ذلك يخرجها إلى الاهتمام بالجانب اللفظي على حساب حضور القلب، فيفقد الدعاء أثره، ويصرفه عن مقصده إلى ألفاظ مسجوعة متكلفة بعيدة عن تعلق القلب بالله، ولذا جاء النهي عن ذلك، فعن ابن عباس قال: «حَدَّثَ النَّاسَ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً، فَإِنْ أَبَيْتَ فَمَرَّتَيْنِ، فَإِنْ أَكْثَرْتَ فَثَلَاثَ مَرَارٍ، وَلَا تُمَلِّ النَّاسَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَلَا أَلْفِينَكَ تَأْتِي الْقَوْمَ وَهُمْ فِي حَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِهِمْ فَتَقْصُ عَلَيْهِمْ فَتَقْطَعُ عَلَيْهِمْ حَدِيثَهُمْ فَتُمَلُّهُمْ، وَلَكِنْ أَنْصِتْ، فَإِذَا أَمْرُوكَ فَحَدِّثْهُمْ وَهُمْ يَسْتَهْوُونَ، فَانْظُرِ السَّجْعَ مِنَ الدُّعَاءِ فَاجْتَنِبْهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا ذَلِكَ»، يعني: لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا ذَلِكَ الْاجْتِنَابَ^(٢).

قال النووي رحمه الله: "ولا يتكلف السجع في الدعاء، فإنه يُشغل القلب، ويُذهب الانكسار، والخضوع، والافتقار، والمسكنة والذلة، والخشوع"^(٣).

(١) الوابل الصيب - ط عطاءات العلم (١/ ١٠ - ١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٧٤ ط السلطانية) ح (٦٣٣٧).

(٣) الأذكار للنووي ت الأرئوط (ص ١٩٨).

١٢ - التضرع، والخشوع، والرغبة، والرغبة.

قال تعالى: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

ومعنى التضرع: التذلل والخشوع والاستكانة والخضوع، والإلحاح في المسألة^(١).
أي ادعوه حالة كونكم "متضرعين أذلاء خاشعين له - جل وعلا - مستشعرين ذلّكم وفقركم وحاجتكم، وعظمة ربكم وكبرياءه، وشدة فقركم إليه، وشدة غناؤه عنكم"^(٢).
وقال تعالى في وصف حال عباده الصالحين عند دعائهم لربهم: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا^ط وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

"{وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا} أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها، من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون لا غافلون، لاهون ولا مدلون، {وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم برهم"^(٣).

١٣ - رد المظالم مع التوبة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]. وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُدْيِي بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»^(٤).

(١) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان - ط هجر (١٠ / ٢٤٧)، زاد المسير في علم التفسير (٢ / ١٢٩)، تفسير السعدي (٢٩١).

(٢) العذب النмир من مجالس الشنقيطي في التفسير (٣ / ٣٩٨).

(٣) تفسير السعدي (ص ٥٣٠).

(٤) أخرجه مسلم (٣ / ٨٥ ط التركية) ح (١٠١٥).

ومن أعظم موانع استجابة الدعاء الوقوع في الحرام كما في الحديث السابق الذي ذكر فيه مجموعة من الآداب التي لا يرد معها الدعاء إلا إذا سد الباب بالوقوع في الحرام كما بين الحديث، وعليه إذا أراد العبد أن يرفع هذه الموانع أن يبادر برد المظالم إلى أهلها ويحدث توبة إلى الله صادقة يندم فيها على ما حصل منه، ويقطع عن الذنب، ويعقد العزم على عدم العودة إلى الذنب، وإذا الذنب يتعلق بحقوق الآخرين فليرد حقوقهم عليهم، أو يطلب العفو والسماح، وبهذا تفتح له أبواب استجابة الدعاء، وسيأتي مزيد بيان لذلك.

١٤ - الدعاء ثلاثاً.

من آداب الدعاء أن يدعو ثلاثاً، وهذا يدخل في باب الإلحاح على الله في الدعاء، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْجِبُهُ أَنْ يَدْعُو ثَلَاثًا، وَيَسْتَغْفِرَ ثَلَاثًا" (١).

وهذا كذلك ادعى لحضور القلب وتدبره فيما يقوله اللسان من دعاء.

١٥ - استقبال القبلة.

من الآداب أن يستقبل الداعي القبلة عند دعائه، وهي قبلة الصلاة، وقد ورد في السنة ما يدل على ذلك، فعن عبد الله بن زيد الأنصاري: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ إِلَى الْمُصَلَّى يُصَلِّي، وَأَنَّهُ لَمَّا دَعَا أَوْ أَرَادَ أَنْ يَدْعُو، اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَحَوَّلَ رِءَاؤُهُ» (٢).

وثبت استقبال القبلة في الدعاء في الحج في كل المناسك التي يدعى فيها في الحج والعمرة.

ولما دعى على قريش في مكة حينما وضعوا سلا الجزور على ظهرة استقبال الكعبة (٣).

ولما دعى النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر استقبال القبلة (٤).

كل هذه النصوص وغيرها تدل على أن قبلة الدعاء هي الكعبة، وهو من آداب الدعاء.

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٠ ط الرسالة) ح (٣٧٤٤)، وأبو داود (٢/ ٨٦ ت محيي الدين عبد الحميد) ح (١٥٢٤)، وقال محقق سنن أبي داود الأرناؤوط: "إسناده صحيح".

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٣١ ط السلطانية) ح (١٠٢٨)، ومسلم (٣/ ٢٣ ط التركية) ح (٨٩٤).

(٣) ينظر: صحيح البخاري (٥/ ٧٤ ط السلطانية) ح (٣٩٦٠).

(٤) ينظر: صحيح مسلم (٥/ ١٥٦ ط التركية) ح (١٧٦٣).

١٦- رفع الأيدي في الدعاء.

ومن الآداب العظيمة التي لها أثر في إجابة دعوة الداعي رفع اليدين في الدعاء، وقد جاءت النصوص الكثيرة في إثبات رفع اليدين في الدعاء، وقد عده السيوطي رحمه الله في المتواتر المعنوي، وذكر أنه ورد فيه مائة حديث تثبت أن النبي ﷺ رفع يديه في الدعاء^(١). ما ورد في الصحيحين ونذكر منه على سبيل المثال:

بواب البخاري رحمه الله فقال: "بَابُ رَفْعِ الْأَيْدِي فِي الدُّعَاءِ، وَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ: دَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ"^(٢).
عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ»^(٣).
عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: «دَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبِيدِ أَبِي عَامِرٍ وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ»^(٤).

١٧- الوضوء قبل الدعاء إن تيسر.

كما في الحديث السابق عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: «دَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبِيدِ أَبِي عَامِرٍ وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ».

قال أبو العباس القرطبي معلقاً على هذا الحديث: "و(قوله: دَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ)، ظاهر هذا الوضوء أنه كان للدُّعَاءِ، إذ لم يذكر أنه صلى في ذلك الوقت بذلك الوضوء، ففيه ما يدل على مشروعية الوضوء للدُّعَاءِ ولذكر الله"^(٥).

(١) ينظر: تدريب الراوي (٦٣١/٢).

(٢) صحيح البخاري (٨/ ٧٤ ط السلطانية).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٧٤ ط السلطانية) ح (٦٣٤١).

(٤) أخرجه البخاري (٨/ ٨١ ط السلطانية) ح (٦٣٨٣)، (٢٤٩٨)، ومسلم (٧/ ١٧٠ ط التركية) ح (٢٤٩٨).

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/ ٤٥٠).

وقال الشيخ محمد بن علي الإثيوبي رحمه الله في شرحه على مسلم عند ذكره لفوائد هذا الحديث: "ومنها: استحباب الطهارة عند إرادة الدعاء"^(١).

(١) البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج (٣٩ / ٦٤٣).

١٨ - أن لا يعتدي في الدعاء.

وقد جاء النصوص بالنهي عن ذلك، ومنها الآية التي سبق الكلام عنها: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعْقَلٍ، سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصَرَ الْأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ، إِذَا دَخَلْتُهَا، فَقَالَ: أَيُّ بُيِّ سَلِ اللَّهُ الْجَنَّةَ، وَعُذِّ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ»^(١).

وفي هذا الحديث مثال على الاعتداء في الدعاء كما نص عليه كلام راوي الحديث. ومن أمثلة الاعتداء في الدعاء^(٢):

- دعاء غير الله تعالى.
- الدعاء على المؤمنين بالشر.
- رفع الصوت والصياح في الدعاء.
- أن يسأل ما لا يستحق له من منازل الأنبياء والمرسلين.
- أن يدعو الله في أن ييسر له محرماً، أو يعينه على فعل معصية.
- ويدخل في الاعتداء: الدعاء على نفسه أو أهله أو ماله بالشر.
- السجع المتكلف في الدعاء؛ خصوصاً في القنوت والبحث عن غرائب الأدعية والكلمات.

(١) أخرجه أحمد (١٧٢ / ٣٤ ط الرسالة) ح (٢٠٥٥٤)، وأبو داود (٧٧ / ٢) ت محيي الدين عبد الحميد ح (١٤٨٠)، وابن ماجه بهذا اللفظ (١٢٧١ / ٢) ت عبد الباقي ح (٣٨٦٤)، ومسنند أبي يعلى (٧١ / ٢) ت حسين أسد، والحاكم ط العلمية (١ / ٧٢٤) ح (١٩٧٩) وصححه وأقره الذهبي، وذكره الألباني في صحيح سنن أبي داود ط غراس (٥ / ٢٢٠) ح (١٣٣٠) وقال: "حديث حسن"، وحسنه كذلك شعيب الأرناؤوط في تعليقه على سنن أبي داود (٢ / ٦٠٤) ت الأرناؤوط ح (١٤٨٠).

(٢) ينظر: الاعتداء في الدعاء (٤٧ و ما بعدها) والكتاب رسالة علمية متخصصة في هذا الأمر، فقه الأدعية والأذكار (٧٨-٦٨/٢).

- الإطالة المملة في دعاء القنوت والتي تشق على الناس وتثقل عبادتهم فيؤمنون وقلوبهم قد كلت وسئمت، وهذا من فتنة الناس عن العبادة وتثقلها عليهم، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أنكر على معاذ إطالة قراءة القرآن في الصلاة فكيف بإطالة غيره.
 - أن يتحرى بدعائه أماكن ليس للدعاء فيها مزية بدليل شرعي، كمن يتحرى بدعائه عند القبور أو عند غار حراء، أو غار ثور، أو عند الشاخص الذي على جبل عرفة.
 - الدعاء الجماعي دبر الصلوات.
 - تخصيص أدعية خاصة لكل شوط في الطواف والسعي.
- ١٩- أن يتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، أو بعمل صالح قام به الداعي نفسه، أو بدعاء رجل صالح حي حاضر.
- ومن آداب الدعاء العظيمة التوسل إلى الله بين يدي دعائه بما شرعه الله من التوسل إليه بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، أو بعمل صالح قام به الداعي نفسه، أو بدعاء رجل صالح حي حاضر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، والوسيلة القربة والتقرب إليه بما يحبه، يقول السعدي رحمه الله: "ثم أخبر أيضاً أن الذين يعبدونهم من دون الله في شغل شاغل عنهم باهتمامهم بالافتقار إلى الله وابتغاء الوسيلة إليه فقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ} من الأنبياء والصالحين والملائكة {يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} أي: يتنافسون في القرب من ربهم ويبدلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ويخافون عذابه فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب. {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه. وهذه الأمور الثلاثة الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير.
- فمن تمت له تمت له أموره وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور.

وعلازمة المحبة ما ذكره الله أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله والنصح فيها وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يجب الله بغير ذلك فهو كاذب" (١).

وأنواع التوسل المشروع ثلاثة (٢):

النوع الأول: التوسل في الدعاء باسم من أسماء الله تعالى، أو صفة من صفاته، كأن يقول الداعي في دعائه: اللهم إني أسألك بأنك أنت الرحمن الرحيم، اللطيف الخبير، أن تعافيني، أو يقول: أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمني، وتغفر لي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ومن دعاء سليمان عليه الصلاة والسلام ما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وعن عبد الله بن بريدة، عن أبيه أن رسول صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ. الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. فَقَالَ: " قَدْ سَأَلَ اللَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أُجَابَ " (٣).

النوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بعملٍ صالح قام به الداعي نفسه، كأن يقول المسلم: اللهم بإيماني بك، أو محبتي لك، أو اتباعي لرسولك أن تغفر لي.

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٦١).

(٢) ينظر: شروط الدعاء وموانع الإجابة في ضوء الكتاب والسنة (ص ٤٠-٤٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣٨ / ٦٤ ط الرسالة) ح (٢٢٩٦٥)، وأبو داود (٢ / ٧٩ ت محيي الدين عبد الحميد) ح (١٤٩٣)،

وابن ماجه (٢ / ١٢٦٧ ت عبد الباقي) ح (٣٨٥٧)، والمستدرک علی الصحیحین للحاکم - ط العلمية (١)

٦٨٣ ح (١٨٥٨) وصححه وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢ / ٢٨٠) ح (١٦٤٠)،

وصححه إسناده محقق المسند عند ح (٢٢٩٦٥).

أو يقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِمَحَبَّتِي لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِيمَانِي بِهِ أَنْ تَفْرَجَ عَنِّي، وَمَنْ ذَلِكَ أَنْ يَذْكُرَ الدَّاعِيَ عَمَلًا صَالِحًا ذَا بَالٍ، فِيهِ خَوْفُهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَتَقْوَاهُ إِيَّاهُ، وَإِثَارُهُ رِضَاهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَطَاعَتُهُ لَهُ جَلَّ شَأْنُهُ، ثُمَّ يَتَوَسَّلُ بِهِ إِلَى اللَّهِ فِي دَعَائِهِ؛ لِيَكُونَ أَرْجَى لِقَبُولِهِ وَإِجَابَتِهِ وَيَدُلَّ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا عَامِنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].

وقوله تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

وَمِنْ ذَلِكَ مَا تَضَمَّنَتْهُ قِصَّةُ أَصْحَابِ الْغَارِ؛ فَإِنْ كَلَّا مِنْهُمْ ذَكَرَ عَمَلًا صَالِحًا تَقَرَّبَ بِهِ إِلَى اللَّهِ ابْتِغَاءً وَجْهَهُ سُبْحَانَهُ، فَتَوَسَّلَ بِعَمَلِهِ الصَّالِحِ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ، فَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ يَقُولُ بَعْدَ ذِكْرِ عَمَلِهِ الصَّالِحِ: "اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ.." ، وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُمْ بِسَبَبِ تَوَسُّلِهِمْ بِعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ وَخَرَجُوا يَمْشُونَ مِنَ الْغَارِ، وَلَفْظُهُ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ^(١) يَقُولُ: «انْطَلَقَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَتَّى أَوْوَا الْمَيْتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرْخِ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غُبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالْقَدْحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتَيْقَاطَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غُبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَأَمْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَّى أَلَمْتُ بِهَا سَنَةً مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي

(١) صحيح البخاري (٣ / ٩١ ط السلطانية) ح (٢٢٧٢).

فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُحْلِيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلْتَ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تُفْضَ الْحَتَّامَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُفُوعِ عَلَيْهَا، فَأَنْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أُعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَقَالَ الثَّالِثُ اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجْرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَتَمَرَّتْ أَجْرُهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّي إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ، مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَأْفَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ».

النوع الثالث: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح الحي الحاضر:

كأن يقع المسلم في ضيق شديد، أو تحلَّ به مصيبة كبيرة، ويعلم من نفسه التفریط في جنب الله تبارك وتعالى، فيحب أن يأخذ بسبب قوي إلى الله تعالى، فيذهب إلى رجل يعتقد فيه الصلاح، والتقوى، أو الفضل والعلم بالكتاب والسنة، فيطلب منه أن يدعو له ربه، ليفرج عنه كربته، ويزيل عنه همه.

ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ، قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَ الْمَالُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ قَزَعَةً، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا وَضَعَهَا حَتَّى تَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَمِنَ الْعَدِ، وَبَعْدَ الْعَدِ، وَالَّذِي يَلِيهِ حَتَّى الْجُمُعَةِ الْآخَرَى، وَقَامَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ، أَوْ قَالَ غَيْرُهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَدَمَ الْبِنَاءُ، وَغَرِقَ الْمَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا. فَمَا يُشِيرُ

يَبْدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ السَّحَابِ إِلَّا انْفَرَجَتْ، وَصَارَتْ الْمَدِينَةُ مِثْلَ الْجُوبَةِ، وَسَالَ الْوَادِي فَنَاءَ شَهْرًا، وَلَمْ يَجْئِ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَّا حَدَّثَ بِالْجُودِ»^(١).

ومن ذلك سؤال أبي هريرة رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو لأمة بالهداية إلى الإسلام، فدعا لها صلى الله عليه وسلم، فهداها الله تعالى^(٢).

ومن ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطلب من العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم الله عز وجل أن يغيثهم، فيغيثهم سبحانه^(٣).

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه: "يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ، مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَفْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبَرَّهُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ.." ^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٢/ ١٢ ط السلطانية) ح (٩٣٣)، ومسلم (٣/ ٢٥ ط التركية) ح (٨٩٧).

(٢) ولفظه: عن أبي هريرة قَالَ: «كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَاسْتَمَعَنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَكْرَهُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْتِي عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَاسْتَمَعَنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ. فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا جِئْتُ فَصَرْتُ إِلَى الْبَابِ فَإِذَا هُوَ مُجَافٍ، فَسَمِعْتُ أُمِّي حَشَفَ قَدَمَيَّ، فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ. وَسَمِعْتُ خَضْحَضَةَ الْمَاءِ. قَالَ: فَاعْتَسَلْتُ وَلَبِسْتُ دِرْعَهَا، وَعَجَلْتُ عَنْ خِمَارِهَا فَفَتَحَتِ الْبَابَ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتِيْنَهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ! قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبَشِّرْ، قَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ! فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجِيبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُحِبِّبَهُمْ إِلَيْنَا! قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ حَبِّبْ عَبْدَكَ هَذَا - يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ - وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ. فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي». أخرجه مسلم (٧/ ١٦٥ ط التركية) ح (٢٤٩١).

(٣) ولفظه: عَنْ أَنَسٍ: «أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ إِذَا فُحِطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بَنِيْنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ بَنِيْنَا فَاسْقِنَا، قَالَ فَيُسْقَوْنَ».

أخرجه البخاري (٢/ ٢٧ ط السلطانية) ح (١٠١٠).

(٤) أخرجه مسلم (٧/ ١٨٩ ط التركية) ح (٢٥٤٢).

وما عدا ذلك فهو توسل غير مشروع، وله أمثلة كثيرة منها:

"الوجه الأول: التوسل إلى الله تعالى بذات وشخص المتوسل به.

كأن يقول المتوسل: اللهم إني أتوسل إليك بفلان

- ولا يعني إلا ذاته وشخصه - أن تقضي حاجتي.

الوجه الثاني: التوسل إلى الله تعالى بجاه أو حقه أو حرمة أو بركته كأن يقول المتوسل:

اللهم إني أتوسل إليك بجاه فلان عندك أو بحقه عليك، أو بحرمة، أو

بركته أن تقضي حاجتي.

الوجه الثالث: الإقسام على الله بالمتوسل به كأن يقول:

اللهم أقسم عليك بفلان أن تقضي لي حاجتي.

وقد أجاز المستحلون للتوسل الممنوع كل هذه الأوجه الثلاثة، والحقيقة أنها جميعاً باطلة وفاسدة

ومخالفة لأصول الدين ونصوصه.

وإليك البيان:

أخي القارئ الكريم: لا يستطيع المستحلون للتوسل بهذه الأوجه الثلاثة أن ينكروا بأنهم

يستحلونها ويدعون الناس إلى التوسل بها بل ويقولون: إنها من القربات التي يتقبل الله بها الدعاء

ويستجيبه.

بينما نقول نحن: بأنها باطلة ومنعها الشرع ولم يأذن بها إذن فإنه توسل ممنوع، فلا يجوز لأحد

أن يعمل به؟ لا شك أننا قد تنازعنا في هذا الأمر واختلفنا فيه ولسنا أول من اختلف فقد

اختلف من قبلنا فليس بدعاً أن نختلف وليس غريباً أن نتنازع، فما دامت المفاهيم مختلفة لا بد

أن يقع الاختلاف فهذا مما قدره الله بين عباده، فكما أنه جل جلاله قدر وقوع الخلاف،

فكذلك قد قدر سبحانه الوفاق وأوصانا عز وجل إن اختلفنا أن نحتكم إلى الله ورسوله أي إلى

كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فقد قال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى

اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا

﴿[النساء: ٥٩]، فأكرم وأنعم وأعظم بهذا الحكم العدل والطرفان المتنازعان راضيان بحكمه وإطاعته وتنفيذه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فما دام الخصمان راضيين بالحكم ونازليين على ما سيقدره ويحكم به ويطيعان الحكم وينفذانه، فليتقدم إذن الطرفان المتنازعان أمام الحكم العدل وليدل كل منهما بحجته وبرهانه. أما نحن فقد سبق أن بينا في شرح التوسل المشروع ما ذكرناه ودللناه بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وأعمال السلف الصالح من الصحابة والقرون الخيرة على مشروعية ذلك التوسل وحض الشارع الحكيم عليه وعلى العمل به والتقرب إلى الله تعالى على أساسه لم نجد بين طيات الوحيين الأزهرين كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ذكراً للتوسل الممنوع الذي يدعي الخصم حله وعده مشروعاً أيضاً، فلو كان مشروعاً حقيقة لذكره الشارع في زمرة ما ذكره وحض كذلك الناس عليه وليس معقولاً أن يهمله الله تعالى ولا يبلغه رسوله صلى الله عليه وسلم ولا يعمل به الصحابة والقرون الخيرة أئضلاً عنه صحابة رسول الله، ويهتدون هم إليه؟ إذن فعدم وجوده لا في كتاب ولا سنة دليل على عدم مشروعيته، وإذا لم تثبت مشروعيته فهو إذن ليس مشروعاً وبدهي إذا لم يكن مشروعاً أن يكون ممنوعاً وحراماً. هذا دليل عام يشمل الأوجه الثلاثة للتوسل الممنوع على عدم مشروعيتها..^(١).

٢٠ - أن يكون المطعم، والمشرب، والملبس من حلال.

ويعتبر هذا من أعظم موانع استجابة الدعاء كما نص على ذلك الحديث الذي سبق، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]. وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) التوصل إلى حقيقة التوسل (ص ١٨٦-١٨٥).

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴿البقرة: ١٧٢﴾، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشَعَتْ أَغْبَرَ
يُمَدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّي
بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ».

٢١- لا يدعو بإثم أو قطيعة رحم.

وقد سبق الحديث في هذا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: « لَا يَزَالُ
يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ، أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا
الِاسْتَعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرِ يَسْتَجِيبْ لِي فَيَسْتَحْسِرْ عِنْدَ ذَلِكَ،
وَيَدْعُ الدُّعَاءَ».

٢٢- أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

ومن موانع استجابة الدعوة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا فَلَا
يُسْتَجَابُ لَكُمْ»^(١).

(١) أخرجه أحمد (٣٨ / ٣٥٢ ط الرسالة) ح (٢٣٣٢٧)، والترمذي (٤ / ٤٦٨ ت شاكر) ح (٢١٦٩) وقال: "هذا
حديث حسن"، وابن ماجه واللفظ له (٢ / ١٣٢٧ ت عبد الباقي) ح (٤٠٠٤)، وحسنه الألباني في تخريجه لأحاديث سنن
ابن ماجه برقم (٤٠٠٤)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لسنن ابن ماجه (٥ / ١٣٩ ت الأرناؤوط) ح (٤٠٠٤): "حسن
لغيره".

المسألة السادسة: طلب العلم الشرعي وصلته بالذكر.

ومن أعظم مجالس الذكر، مجالس طلب العلم الشرعي.
وهنا أحب أن انقل كلاماً متيناً لابن رجب رحمه في رسالته الموسومة "ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء" مع شيء من الاختصار والتصرف^(١)، وفي الحديث المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إِذَا مَرَزْتُمْ بَرِيَاضَ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا» قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «حِلْقُ الذِّكْرِ»^(٢). وكان ابن مسعود إذا ذكر هذا الكلام يقول: "أما إني لا أعني القصاص"^(٣) ولكن حلق الفقه". وروى عن أنس معناه أيضاً.

وقال عطاء الخراساني: "مجالس الذكر مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع، وتصلي وتصوم، وتنكح وتطلق، وتحج وأشباه هذا"^(٤).
وقال يحيى بن أبي كثير: "درس الفقه صلاة"^(٥).

(١) ينظر: ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء (ص ٢١-٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٩ / ٤٩٨ ط الرسالة) ح (١٢٥٢٣)، والترمذي (٥ / ٥٣٢ ت شاكر) ح (٣٥١٠) وقال حديث حسن غريب، وحسنه الألباني وذكره في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦ / ١٣٠) ح (٢٥٦٢) وذهب أكثر المحققين إلى تضعيفه، وفي لفظ كذلك فيه ضعف وهو عند الترمذي (٥ / ٥٣٢ ت شاكر) ح (٣٥٠٩) "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «الْمَسَاجِدُ»، قُلْتُ: وَمَا الرَّتْعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ» وقال الترمذي عنه مشيراً إلى ضعفه: "هذا حديث غريب"، وفي بعض طرقه الضعيفة وهو في المعجم الكبير للطبراني (١١ / ٩٥) ح (١١١٥٨) «إِذَا مَرَزْتُمْ بَرِيَاضَ الْجَنَّةِ، فَارْتَعُوا» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ قَالَ: «مَجَالِسُ الْعِلْمِ»، والله أعلم.

(٣) لفظ يطلقه السلف على الوعظ.

(٤) هذا اللفظ في تاريخ دمشق (٤٠ / ٤٣٢)، والجملة الأولى: "مجالس الذكر مجالس الحلال والحرام" ذكرها أبو نعيم عن عطاء الخراساني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة (٥ / ١٩٥)، وهي كذلك عنه في سير أعلام النبلاء - ط الرسالة (٦ / ١٤٢).

(٥) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه بنحوه (١ / ١٠٣) يَقُولُ: «تَعْلِيمُ الْفِقْهِ صَلَاةٌ، وَدِرَاسَةُ الْقُرْآنِ صَلَاةٌ».

وكان أبو السوار العدوي في حلقة يتذكرون العلم ومعهم فتى شاب، فقال لهم: قولوا: سبحان الله والحمد لله، فغضب أبو السوار، وقال: "ويحك، في أي شيء كنا إذا؟" (١)

والمراد بهذا أن مجالس الذكر لا تختص بالمجالس التي يذكر فيها اسم الله بالتسبيح والتكبير والتحميد ونحوه؛ بل تشمل ما ذكر فيه أمر الله ونهيه وحلاله وحرامه وما يحبه ويرضاه، فإنه ربما كان هذا الذكر أنفع من ذلك؛ لأن معرفة الحلال والحرام واجبة في الجملة على كل مسلم، بحسب ما يتعلق به في ذلك، وأما ذكر الله باللسان، فإن أكثره يكون تطوعاً، وقد يكون واجباً كالذكر في الصلوات المكتوبة.

وأما معرفة ما أمر الله به ونهى عنه، وما يحبه ورضاه، وما يكرهه وينهى عنه فيجب على كل من احتاج إلى شيء من ذلك أن يتعلمه.

ولهذا روى: "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ" (٢).

فإنه يجب على كل مسلم معرفة ما يحتاج إليه في دينه، كالطهارة والصلاة والصيام.

ويجب على من له مال معرفة ما يجب عليه في ماله من زكاة ونفقة، وحج وجهاد.

وكذلك يجب على كل من يبيع ويشترى أن يتعلم ما يحل ويحرم من البيوع.

كما قال عمر رضي الله عنه: "لا يبيع في سوقنا إلا من قد تفقه في الدين" خرجه الترمذي (٣).

وسئل الإمام أحمد رحمه الله عن الرجل ما يجب عليه من طلب العلم؟ فقال: ما يقيم به

الصلوات وأمر دينه من الصوم والزكاة، وذكر شرائع الإسلام. وقال: ينبغي له أن يتعلم ذلك.

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٢٥٧) رقم (١٨٤٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١ / ٨١ ت عبد الباقي) ح (٢٢٤)، وهو في مسند أبي يعلى (٥ / ٢٢٣ ت حسين أسد) ح (٢٨٣٧)

وصححه الألباني في تحقيقه لسنن ابن ماجه ح (٢٢٤) وفي صحيح الترغيب والترهيب (١ / ١٤٠) ح (٧٢).

(٣) رقم (٤٨٧).

وقال أيضاً: "الذي يجب على الإنسان من العلم ما لا بد له منه في صلاته وإقامة دينه"^(١).
 واعلم أن علم الحلال والحرام علم شريف، ومنه ما تعلمه فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية.
 وقد نص العلماء على أن تعلمه أفضل من نوافل العبادات، منهم أحمد وإسحاق.
 ومن مجالس الذكر أيضاً: مجالس العلم التي يذكر فيها تفسير كتاب الله أو يروى فيها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإن كانت رواية الحديث مع تفسير معانيه، فذلك أكمل وأفضل من مجرد رواية ألفاظه ويدخل في الفقه في الدين كل علم مستنبط من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم سواء كان من علوم الإسلام التي هي الأعمال الظاهرة والأقوال، أو من علوم الإيمان التي هي الاعتقادات الباطنة، وأدلة ذلك وبراهينه المقررة في الكتاب والسنة، أو من علوم الإحسان التي هي علوم المراقبة والمشاهدة بالقلب، ويدخل في ذلك علم الخشية والمحبة والرجاء والإنابة، والصبر والرضا، وغير ذلك من المقامات.

وكل ذلك قد سماه النبي ﷺ في حديث سؤال جبرئيل له عنه: ديناً.
 فالفقه فيه من الفقه في الدين، ومجالسه من أفضل مجالس الذكر التي هي من رياض الجنة، وهي أفضل من مجالس ذكر اسم الله بالتسبيح والتحميد والتكبير؛ لأنها دائرة بين فرض عين أو فرض كفاية، والذكر المجرد تطوع محض.

وروي عن أبي الدرداء قال: "مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة"^(٢).

(١) ينظر: طبقات الحنابلة (١/ ١٠٤).

(٢) الفقيه والمتفقه - الخطيب البغدادي (١/ ١٠٢).

وعن أبي هريرة قال: "لأن أعلم باباً من العلم في أمر أو نهي أحب إلي من سبعين غزوة في سبيل الله عز وجل" (١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: "تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها" (٢).

وصح عن أبي موسى الأشعري أنه قال: "لمجلس أجلسه من عبد الله بن مسعود أوثق في نفسي من عمل سنة" (٣).

وعن الحسن قال: "لأن أتعلم باباً من العلم فأعلمه مسلماً أحب إلي من أن تكون لي الدنيا كلها أجعلها في سبيل الله عز وجل" (٤).

وعنه قال: "إن كان الرجل ليصيب الباب من العلم فيعمل به فيكون خيراً له من الدنيا وما فيها، لو كانت له فيجعلها في الآخرة" (٥).

وعنه قال: "مداد العلماء ودم الشهداء مجرى واحد" (٦).

وعنه: "ما من شيء مما خلق الله أعظم عند الله في عظيم الثواب من طلب علم، لا حج، ولا عمرة، ولا جهاد، ولا صدقة، ولا عتق، ولو كان العلم صورة لكانت صورته أحسن من صورة الشمس والقمر والنجوم والسماء والعرش".

(١) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١ / ١٠٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠ / ٢٨٨ ط التأصيل الثانية) برقم (٢١٥٤٣).

(٣) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٣ / ١٥٣).

(٤) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١ / ١٠٢).

(٥) أخرجه الدارمي في مسنده - ت حسين أسد (١ / ٣٨٣) برقم (٣٩٧).

(٦) ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١ / ١٥٠) مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولا يصح رفعه بل هو من كلام الحسن رحمه الله.

قال الزهري: "تعلم سنة أفضل من عبادة مائتي سنة"^(١).

وقال سفيان الثوري وأبو حنيفة: "ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم"^(٢).

قال الثوري: "لا نعلم شيئاً من الأعمال أفضل من طلب العلم والحديث لمن حسنت فيه نيته"^(٣). قيل له: وأي شيء النية فيه؟ قال: يريد الله والدار الآخرة".

وقال الشافعي: "طلب العلم أفضل من صلاة نافلة"^(٤).

ورأى مالك بعض أصحابه يكتب العلم ثم تركه وقام يصلي، فقال: عجباً لك! ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي تركته"^(٥).

وسئل الإمام أحمد: أيما أحب إليك، أن أصلي بالليل تطوعاً، أو أجلس أنسخ العلم؟ قال: إذا كنت تنسخ ما تعلم أمر دينك فهو أحب إلي.

وقال أحمد أيضاً: "العلم لا يعدله شيء"^(٦).

وقال المعافى بن عمران: "كتابة حديث واحد أحب إلي من قيام ليلة"^(٧).

ومما يدل على تفضيل العلم على جميع النوافل أن العلم يجمع جميع فضائل الأعمال المتفرقة.

(١) أورده ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣ / ٦).

(٢) نسبه في المجموع شرح المذهب إلى الشافعي (١ / ٢٠ ط المنيرية).

وفي تذكرة السامع والمتكلم نسبه إلى الثوري والشافعي (ص ١٢).

(٣) ينظر: مسند الدارمي - ت حسين أسد (١ / ٣٥٢) رقم (٣٣٥) وهو في جامع بيان العلم وفضله (١ / ١٢٣) برقم (١١٩).

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة (٩ / ١١٩).

(٥) ينظر: شرح مذاهب أهل السنة لابن شاهين (ص ٥٤).

(٦) نسبه في موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلمه (٤ / ٣٨٩) لابن هانئ في مسائله.

(٧) أورده ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١ / ١٢٠) برقم (١١٢).

فإن العلم أفضل أنواع الذكر، كما سبق تقريره، وهو أيضا أفضل أنواع الجهاد.

وخرج الترمذي من حديث أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع"^(١).

انتهى المقصود من كلام ابن رجب رحمه الله نقلته بطوله لأهميته في هذا الباب^(٢).

تنبيه مهم: وهنا ننبه على انحراف في بعض من ضل عن الصراط المستقيم، وذلك بكونهم يزهدون في العلم وأهله وينفرون اتباعهم عن الاقبال على العلم الشرعي وطلبه على يد العلماء وذلك حتى لا ينكشف لاتباعهم ضلال مسلكهم، فإن العلم الشرعي نور ينقذ من سلك طريقه من الجهل والضلال "هذا وإن من عدم معرفة قدر أهل العلم وحفظ مكانتهم الإدعاء بأن علماء الأمة وفقهاء الملة وأهل الحل والعقد فيها لا يفقهون غير علم الحيض والنفاس، مما يترتب على ذلك الحط من شأنهم والتقليل من قدرهم، وصرف الناس عن الإفادة منهم، وهي مقالة فاسدة وكلمة خطيرة، نشأت قديماً عند أرباب البدع وأهل الأهواء، ولكل قوم وارث، وفي الغالب أن أهل هذه المقالة لا يسلم الواحد منهم من أحد توجهين:

- إما توجه صوفي، ينحى بهذه المقالة إلى الحط من قدر العلم والتنقيص من مكانته،

ليخلص من ذلك إلى تفضيل العبادة والذكر عليه، وربما استشهد بعض هؤلاء على هذا بما يحكى عن رابعة العدوية أنها أتت ليلة بالقدس تصلي حتى الصباح، وإلى جانبها بيت فيه فقيه يكرر على باب الحيض إلى الصباح، فلما أصبحت رابعة قالت له: يا هذا وصل الواصلون إلى ربهم، وأنت مشغل بجيـض النساء؟^(٣).

(١) ح (٢٦٤٧) لكن الحديث ضعيف عند أهل العلم، والله أعلم.

ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٥/ ٥٥) ح (٢٠٣٧).

(٢) ينظر: ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء (ص ٢١-٣٧) مع بعض الاختصار، وقد بذلت الجهد في نسبة الأقوال لأصحابها، وبعضها لم أجده في مظانه فتركته بدون نسبه واكتفيت بذكر ابن رجب له.

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٩٦/١١).

ولهذا دأب هؤلاء على النهي عن العلم والتحذير منه وعده آفة من الآفات، كما يقول أحدهم: "آفة المريد ثلاث: التزوج، وكتابة الحديث، والأسفار".

- وإما توجه فكري ينحى بهذه المقالة إلى إقحام الناس في متاهات فكرية وتخربات عقلية وظنون وأوهام، وهذا يكثر عند أهل الكلام الباطل كالمعتزلة وغيرهم.

روي عن إسماعيل بن عليّة، قال حدثني اليسع، قال: تكلم واصل ابن عطاء يوماً، فقال عمرو بن عبيد: "ألا تسمعون؟ ما كلام الحسن وابن سيرين عندما تسمعون إلا خرقة حيض ملقاة"^(١).

وروي أن زعيماً من زعماء أهل البدع كان يريد تفضيل الكلام على الفقه فكان يقول: "إن علم الشافعي وأبي حنيفة جملته لا يخرج من سراويل امرأة". ذكر هذا والذي قبله الشاطبي في كتابه الاعتصام، ثم قال: "هذا كلام هؤلاء الزائغين قاتلهم الله"^(٢)^(٣).

ومن أقوال أهل التصوف التي تزهد في طلب العلم:

"وكان الجنيد يقول: أحب للمريد المبتدي أن لا يشغل قلبه بهذه الثلاث وإلا تغيّر حاله التكسب وطلب الحديث والتزوّج، وقال: أحب للصوفي أن لا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهمه"^(٤).

وروا عن بشر بن الحارث الحافي أن سبب تركه طلب الحديث أنه سمع من ينصحه بترك الإكثار من طلب الحديث؛ لأنه يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون؟! فلما سمعه منه قال: انتهينا انتهينا، ثم ترك الرحلة في طلب الحديث، وأقبل على العبادة^(٥).

(١) ينظر: الكامل في ضعفاء الرجال (٦ / ١٨٢).

(٢) الاعتصام للشاطبي ت الشقيير والحميد والصيني (٣ / ١٧٧).

(٣) فقه الأدعية والأذكار (١ / ١٠٧ - ١٠٨).

(٤) قوت القلوب (١ / ٤٤٣).

(٥) ينظر: كتاب دراسات في التصوف (ص ١٣١).

المبحث الأول: ملخص في إثبات أثر عمل القلب، وأهميته، وفيه مطالب.

المطلب الأول: من أدلة الكتاب والسنة في إثبات أثر عمل القلب.

لقد اعتنى القرآن العظيم والسنة الشريفة بمسألة عمل القلب وأثره اعتناء كبيراً، فقد جاءت آيات كثيرة في إثبات أثر عمل القلب وتأثره بما يعمل صاحبه، فقد ذكر الله ﷻ أن قلوب المؤمنين يصيبها الوجل، وتطمئن بذكره، وأنها تخشع وتخضع لأمره، وغير ذلك كثير، وإذا تقرر هذا في حق المؤمنين، فإن القرآن الكريم قد ذكر في مقابل ذلك حال الكفار والمنافقين وتأثر قلوبهم بما يعملون، وذكر ﷻ كذلك أثر أمراض قلوبهم عليهم؛ من الختم والطبع، وما أصابها من مرض النفاق، والزيف عن الحق، والقسوة... وقد جاءت آيات كثيرة في بيان ذلك. وكذلك جاءت أحاديث كثيرة تثبت أثر عمل القلب، ودونك ملخص لإثبات ذلك:

أولاً: أمثلة على إثبات أثر عمل القلب على المؤمن مع ذكر شواهدا من القرآن العظيم.

وجل القلب وخوفه من الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٢]. وفيها إثبات أثر ذكر الله على القلب بحصول

الوجل، ومعناه: الخوف من الله^(١)، ولا شك أن الذكر لا يحدث أثره في حصول وجل القلب من الله تعالى إلا إذا تواطأ القلب مع الحواس.

طمأنينة القلب، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ

تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، دلت الآية على أثر ذكر الله على قلب المؤمن، فهو

يأنس ويطيب ويسكن بذكر الله تعالى^(٢).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٥ / ٤٢٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٦ / ٤٣٢).

ثانياً: أمثلة على إثبات أثر مرض القلب على صاحبه وردت في آيات الكتاب العزيز.
 عقوبة الله لأصحاب القلوب التي كفرت بالله بالختم عليها، وزيع القلوب عن الحق، فقال
 تعالى عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً
 وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿البقرة: ٦، ٧﴾.

قال البغوي رحمه الله في تفسيره لمعنى الختم على القلوب: "فقال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾: طبع الله
 ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فلا تعي خيراً ولا تفهمه" (١).

وهذا الختم على القلوب عقوبة لهم بسبب منهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ
 قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].
 ومن آثار مرض النفاق على القلوب تقييدها عن الخير بما يحدث لها من التردد والتذبذب
 والشك والحيرة والكسل عن الطاعات وكرهها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ
 يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]. والريب هو الشك، وهو من أثر أمراض النفاق على القلوب،
 فيتولد منه أثره على القلب بالتردد والتذبذب والكسل عن الطاعة وكرهها، فقال تعالى في بيان
 أثر النفاق على القلب: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا
 إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٤٢)

مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا يَهْدِ لَهُ سَبِيلًا ﴿النساء: ١٤٢، ١٤٣﴾.

وقال تعالى عن المنافقين: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وقال تعالى في بيان أثر مرض النفاق على القلب وأن الله ﷻ لا يمكن صاحبه من العمل، بل يقعده عنه عقوبة له على ما في قلبه من مرض: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

وإذا وجد العبد أنه يثبُط عن الطاعات، ويحال بينه وبينها، فليفتش عن مرض في قلبه. أثر الذنوب على القلب في تغطيته وحجبه عن رؤية الحق، كما في قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

أثبت الله تعالى أن الذنوب تغطي على القلوب، فتحجبها عن رؤية الحق فلا تقبله، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِنَتْ (١) فِي قَلْبِهِ

(١) أي تُقَطُّ نقطة في قلبه.

ينظر: الصحاح (١/ ٢٦٩)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١١٤) لابن الأثير، مادة (نكت).

نُكْتَةُ سَوْدَاءٍ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ^(١) قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُو قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»^(٢).

فإذا غطت الذنوب القلب عمي عن رؤية الحق وانطمست بصيرته، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ثالثاً: وقد ورد في السنة ما يبين مكانة عمل القلب وأثره على صاحبه، ودونك إشارة لذلك:

أثر عمل القلب على صلاح الجسد أو فساد، ويدل عليه ما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال عليه السلام: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٣).

وفي الحديث إشارة - كما يقول ابن رجب رحمه الله -: "إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه، واجتنابه المحرمات واتقائه للشبهات بحسب صلاح حركة قلبه، فإذا كان قلبه سليماً، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها، وتوقٍ للشبهات حذراً من الوقوع في المحرمات.

(١) وفي أكثر روايات الحديث: "صُقِلَ" بالصاد، والسقل والصقل بمعنى واحد، أي: جلاه ونظفه وصفاه وذهب عنه أثر الذنب.

ينظر: الصحاح (١٧٤٤ / ٥) مادة (صقل)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤ / ١٦٢٢)، تحفة الأحوذى (٩ / ١٧٨) للمباركفوري، دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) أخرجه أحمد (٣٣٣ / ١٣) ح (٧٩٥٢)، والترمذي واللفظ له (٤٣٤ / ٥) ح (٣٣٤) وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح"، وابن ماجه (١٤١٨ / ٢) ح (٤٢٤٤)، وابن حبان في صحيحه (٣ / ٢١٠) ح (٩٣٠)، الحاكم في مستدركه (٢ / ٥٦٢) ح (٣٩٠٨) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢ / ٢٧١) ح (١٦٢٠)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند (١٣ / ٣٣٤) ح (٧٩٥٢): "إسناده قوي".

(٣) أخرجه البخاري (١ / ٢٠) ح (٥٢)، ومسلم (٣ / ١٢١٩) ح (١٥٩٩).

وإن كان القلب فاسداً، قد استولى عليه اتباع هواه، وطلب ما يحبه، ولو كرهه الله، فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعثت إلى كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب^(١).
ارتباط التقوى بعمل القلب، يقول ﷺ: «التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.. الحديث^(٢)

وذكر النووي في شرحه للحديث أن التقوى إنما تحصل بما في القلب من الأعمال، فيقول رحمه الله: "إن الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى، وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته"^(٣).

في بيان أثر مرض الكبر على القلب، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً! قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(٤).
وفي الحديث دليل على أثر آفة الكبر على من تلبس بها، وهو من أخطر أمراض القلوب، ومن أعظم ما يصد القلوب عن الهدى.

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٨٦) ح (٢٥٦٤).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٢١).

(٤) أخرجه مسلم (١/ ٩٣) ح (٩١).

المطلب الثاني: أهمية عمل القلب.

وتتضح الدلالة على أهمية عمل القلب من خلال الأمور الآتية:

أولاً: كثرة ذكرها في القرآن العظيم، وقد تقدمت إشارة إلى ذلك.

ثانياً: ويكفي في الدلالة على عظيم مكانة عمل القلب في السنة ماورد في الحديثين الآتين:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١)، فالقلوب وأعمالها هي محل نظر الرب ﷻ.

وقال ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٢)، فصلاح الجوارح مرتبط بصلاح القلب، وهذا له أثره الكبير على خشوع المؤمن في صلاته.

ثالثاً: تحدث ابن القيم عن أهمية عمل القلب، فقال رحمه الله: "فعمل القلب هو روح العبودية ولبها، فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح... ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما؟! وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه؟! وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كل وقت؛ ولهذا كان الإيمان واجب القلب على الدوام، والإسلام واجب الجوارح في بعض الأحيان"^(٣).

وأعمال القلوب هي الأصل، وهي فرض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان، من تركها بالكلية فهو إما كافر أو منافق، وأعمال الجوارح تابعة ومتممة لأعمال القلوب، فلا تتم إلا بها^(٤).

(١) أخرجه مسلم (١٩٨٧/٤) ح (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠/١) ح (٥٢)، ومسلم (١٢١٩/٣) ح (١٥٩٩).

(٣) بدائع الفوائد (٣/١٩٢-١٩٣).

(٤) ينظر: مجموع الفتاوى (١٨/١٨٤-١٨٥)، بدائع الفوائد (٣/١٨٧-١٨٨).

المطلب الثالث: الآثار العامة لعمل القلب على العبادات، ونجملها في الآتي:

قبول الله للعمل، وذلك يكون بشرطين:

الأول: مجاهدة النفس على الإخلاص لله تعالى، مما يثمر الحرص على سلامة المقاصد في العبادات من العجب والرياء والسمعة.

الثاني: مجاهدة النفس على اتباع الهدي النبوي في أداء العبادة والحرص على سلامتها من البدع. طهارة القلب من التعلق بغير الله يثمر حضور القلب في العبادة وعدم تشتته في أودية الدنيا، ولا يؤدي إلى ضيقه بالعبادة وثقلها عليه؛ لأنه إذا تعلق القلب بالله وحده لا شريك له صفا له قلبه وطهر وصار همه الآخرة، وسلم من التشتت والفتنة التي تضرب بها القلوب المتعلقة بغير

الله، فتشبطها عن طاعة الله، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا

لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ

﴿التوبة: ٤٦﴾، وقال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ

الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»^(١).

الحرص على إتقان العبادة وإتمامها، والاجتهاد في الوصول إلى مقام الإحسان في العبادات، كما قال ﷺ عن مقام الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٢).

(١) أخرجه الترمذي (٤ / ٦٤٢) ح (٢٤٦٥)، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١ / ٢٦٦) ح (١١٦٩٠)، وذكره

الألباني في السلسلة الصحيحة (٢ / ٦٣٣) ح (٩٤٩)، وصححه في صحيح الجامع (٢ / ١١٠٩) ح (٦٥٠٥).

وأخرجه ابن ماجه (٢ / ١٣٧٥) ح (٤١٠٥) بلفظ: «مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»

من حديث زيد بن ثابت ؓ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢ / ٦٣٤) ح (٩٥٠)،

وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لسنن ابن ماجه (٥ / ٢٢٧) ح (٤١٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (١ / ١٩) ح (٥٠)، ومسلم (١ / ٣٦) ح (٨).

وهذه المرتبة العظيمة لا تحصل إلا إذا سلم القلب لله تعالى، واستحضر عظمة الله ومراقبته له وعلمه واطلاعه عليه، وجاهد العبد نفسه على إصلاح قلبه، وتنقيته من شوائب العجب والرياء والكبر والحسد، ومن بقية الآفات.

المبحث الثاني: من أعمال القلوب التي لها ارتباط وثيق بعبادة الذكر والدعاء، وفيه تمهيد وعدة مطالب.

التمهيد: الارتباط الوثيق بين عمل القلب وعبادة الذكر والدعاء.

الذكر والدعاء من العبادات العظيمة التي لها ارتباط وثيق وعميق بعمل القلب كبقية العبادات، وذلك لأنه لعمل القلب أثر عظيم مبارك على هذه العبادة في شدة الاقبال عليها والاستمرار وعدم الانقطاع، فحين يرتبط اللسان مع القلب ويتصل كل منهما بالآخر عند الذكر والدعاء يكون لهذه العبادة لذة عظيمة وأثر مبارك على حياة العبد في الدنيا والآخرة، فإذا قوي الإخلاص والمتابعة ورزق العبد محبة الله والخوف والخشية والطمع فيما عنده، وتمكن اليقين من القلب وظهر أثره على العبد، فتجده يسارع ويسابق إلى كثرة ذكر الله وكثرة الدعاء والتضرع الخاشع، ودونك تفصيل لبعض أعمال القلب المرتبطة بعبادة الذكر والدعاء، والله الموفق والمعين.

المطلب الأول: الإخلاص والمتابعة.

المسألة الأولى: الإخلاص وأثره على عبادة الذكر والدعاء.

أولاً: تعريف الإخلاص:

لقد عرف الإخلاص بتعاريف كثيرة متقاربة، ومن أدقها تعريف الغزالي، فيقول رحمه الله عن الإخلاص بأنه: "تجريد قصد التقرب إلى الله عن جميع الشوائب"^(١). وعرفه ابن القيم رحمه الله بمجموعة من التعريفات من أدقها: "إفراد الحق بالقصد في الطاعة، وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين، وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله"^(٢).

(١) إحياء علوم الدين (٤ / ٣٧٩).

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٩١-٩٢).

ثانياً: من أدلة الكتاب والسنة على الإخلاص:

لقد جاءت الأدلة الكثيرة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ دالة على هذا العمل القلبي العظيم، ومنها على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله في معنى هذه الآية: "أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله تعالى، وما جاءوا به عنه من الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشرعة، وأن يكون خالصاً من الشرك" (١).

ويقول السعدي رحمه الله: "أي: قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له. والدعاء يشمل: دعاء المسألة، ودعاء العبادة، أي: لا تراءوا ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه" (٢).

ومن الأدلة على الإخلاص قوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤].

قال السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: "وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، والإخلاص معناه: تخلص القصد لله تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده. أي: أخلصوا لله تعالى في كل ما تدينونه به وتتقربون به إليه.

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٣).

(٢) تفسير السعدي (٢٨٦).

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يشنكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]"^(١).

ومن الأدلة على وجوب إخلاص النية لله تعالى في جميع العبادات الظاهرة والباطنة^(٢) قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].
ومما ورد في السنة عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِأَمْرِي مَا نَوَيْ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(٣).

قال ابن رجب رحمه الله: "والنية في كلام العلماء تقع بمعنيين: أحدهما: بمعنى تمييز العبادات بعضها عن بعض، كتميز صلاة الظهر من صلاة العصر مثلاً، وتميز صيام رمضان من صيام غيره، أو تمييز العبادات من العادات، كتميز الغسل من الجنابة من غسل التبرد والتنظيف، ونحو ذلك، وهذه النية هي التي توجد كثيراً في كلام الفقهاء في كتبهم.

والمعنى الثاني: بمعنى تمييز المقصود بالعمل، وهل هو الله وحده لا شريك له، أم غيره، أم الله وغيره؟ وهذه النية هي التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه، وهي التي توجد كثيراً في كلام السلف المتقدمين"^(٤).

(١) تفسير السعدي (٧٣٤).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥ / ٥٨٠)، تفسير السعدي (٩٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٨ / ١٤٠) ح (٦٦٨٩)، ومسلم (٣ / ١٥١٥) ح (١٩٠٧).

(٤) جامع العلوم والحكم (١ / ٦٥-٦٦).

ومما يدل على أن الإخلاص شرط لقبول العمل حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ، مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ»، فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ»، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتَغَى بِهِ وَجْهَهُ»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ - يَا أَبَا هُرَيْرَةَ - أَنَّ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ» أَوْ: «نَفْسِهِ»^(٢).

ودل الحديث على أمور، منها:

- أن الإخلاص في كلمة التوحيد من أعظم أسباب سعادة المؤمن بشفاععة النبي ﷺ يوم القيامة^(٣).

- وفي عون المعبود: "وفي قوله في حديث أبي هريرة: «أَسْعَدَ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» سر من أسرار التوحيد، وهو أن الشفاععة إنما تنال بتجريد التوحيد، فمن كان أكمل توحيدًا كان أحرى بالشفاعة"^(٤).

عن أبي هريرة رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُفْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ

(١) أخرجه النسائي (٢٥ / ٦) ح (٣١٤٠)، وجوّد إسناده ابن حجر في الفتح (٢٨ / ٦)، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١١٨ / ١) ح (٥٢)، وقال في صحيح سنن النسائي (٣٨٣-٣٨٤) ح (٣١٤٠): "حسن صحيح".

(٢) أخرجه البخاري كتاب العلم، باب الحرص على الحديث (٣١ / ١) ح (٩٩).

(٣) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١ / ١٩٤).

(٤) عون المعبود (١٣ / ٥٦).

فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).

والحديث من أعظم الزواجر عن الرياء والسمعة التي هي من نواقض الإخلاص.

ثالثاً: أثر الإخلاص على عبادة الذكر والدعاء.

النية الخالصة لله تعالى من أعظم أسباب قبول العمل إذا كان معها موافقة الهدي النبوي، الذي سيأتي الكلام عليه.

قوة العبد في ذكره لله وفي دعائه، وإعانة الله له، وتوفيقه.

حذر العبد من أسباب فساد عبادته وردّها عليه.

التلذذ بعبادة الذكر والدعاء، وإقبال القلب عليها، والاستمرار وعدم الانقطاع.

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥١٣) ح (١٩٠٥).

المسألة الثانية: المتابعة وأثرها على عبادة الذكر والدعاء.

أولاً: معنى المتابعة.

ومعنى المتابعة والاتباع - وهما بمعنى واحد - هو الاقتداء بالنبي ﷺ والاهتداء بهديه، واتباع سنته في القول والفعل بدون منازعة ولا ممانعة ولا مدافعة برأي أو عقل أو استحسان^(١). وقد جاءت النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة في الدلالة على هذا المعنى، ومنها على سبيل المثال:

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

أما من السنة فعن أبي هريرة: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»^(٢).

(١) ينظر: ذكر الله تعالى بين الاتباع والابتداء (٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٩/ ٩٢ ط السلطانية) ح (٧٢٨٠).

وقال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١).

وفي الرواية الأخرى في صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَخَذَتْ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(٢).

ثانياً: الذكر من أعظم العبادات.

الذكر والدعاء من أعظم العبادات وقد جاءت النصوص الكثيرة في إثبات ذلك في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وقد سبق الكلام على ذلك في أول الكتاب بما يغني عن إعادته هنا.

ثالثاً: أثر المتابعة على عبادة الذكر.

- الحرص على الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم والاهتداء بهديه واتباع سنته في كل العبادات، ومنها الذكر والدعاء، وهذا يوصل إلى أمر مهم عظيم وهو حرص المسلم الشديد على عدم الوقوع في البدع والمحدثات في عبادة الذكر والدعاء.
- ظهور آثار محبة الله ورسوله على العبد، وذلك بحرصه العظيم على اتباع النبي ﷺ في كل عباداته ومنها الذكر والدعاء، فأعظم علامة دالة على صدق المحبة لله اتباع رسوله كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].
- قبول العمل عند الله تعالى إذا تمت متابعة النبي صلى الله عليه وسلم مع إخلاص العبد لربه.
- تحقيق التوحيد في عبادة الذكر والدعاء بصفائه ونقاؤه من شوائب الشرك.

(١) أخرجه مسلم (٣/١٣٤٣) ح (١٧١٨).

(٢) أخرجه مسلم (٣/١٣٤٣) ح (١٧١٨).

المطلب الثاني: المحبة وأثرها على عبادة الذكر والدعاء.

أولاً: تعريفها:

عرفها النووي رحمه الله بقوله: "المحبة: مواطأة القلب على ما يرضي الرب سبحانه، فيحب ما أحب ويكره ما كره"^(١).

وخلاصة القول كما قال ابن القيم رحمه الله: "لا تحب المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدنا إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة. وإنما يتكلم الناس في أسبابها، وموجباتها، وعلاماتها، وشواهداها، وثمراتها، وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات، وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله، وملكه للعبارة"^(٢).

ثانياً: من أدلة الكتاب والسنة على المحبة:

ذكر ﷺ أنه يحب المتقين، ويحب الصابرين، ويحب المتوكلين.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

والآيات في ذلك يصعب حصرها لكثرتها.

وذكر أيضاً ﷺ أنه لا يحب الكافرين، ولا يحب المعتدين، ولا يحب المسرفين، والآيات في ذلك

كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا

تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقوله تعالى وتبارك: ﴿قُلْ

أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

(١) شرح النووي على مسلم (٢/ ١٤).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١١).

وجعل ﷺ علامة على محبته اتباع رسوله ﷺ، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وذكر ﷺ أن المؤمنين أشد حبا لله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال ﷺ عن نفسه وعن عباده الصالحين: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يُعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»^(١).

دل الحديث على أن محبة الله ورسوله من أعظم أسباب حلاوة الإيمان، وهي جنة معجلة لمن حقق أسبابها.

ثالثاً: من أقوال العلماء في المحبة:

وقال ابن القيم رحمه الله: "المحبة هي حياة القلوب وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذة، ولا نعيم، ولا فلاح، ولا حياة إلا بها.

وإذا فقدتها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، والأنف إذا فقد شمها، واللسان إذا فقد نطقه، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة"^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٢٠ / ٩) ح (٦٩٤١)، ومسلم (١ / ٦٦) ح (٤٣).

(٢) الجواب الكافي (١ / ٥٤٥-٥٤٦).

وقال ابن قدامة رحمه الله: "علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب، وكمال التمتع بالخلوة، وكمال الاستيحاش من كل ما ينقض عليه الخلوة، ومتى غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرّة عين تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحب والأنس قلبه"^(١).
 رابعاً: أثر المحبة على عبادة الذكر والدعاء.

من أعظم العلامات الدالة على صدق محبة العبد لربه كثرة ذكره ودعائه، وقال تعالى عن المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ثم ذكر حالهم -مع ذكره ودعائه لشدة محبتهم له- بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال تعالى عنهم في كثرة ذكرهم لله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

تلذذ القلب بكثرة تلاوة كلام الله تعالى، كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: "لو طهرت قلوبنا لما شبعنا من كلام الله"^(٢)، وقال بعض من ذاقوا ذلك: "كيف يشبعون من كلام محبوبهم وهو غاية مطلوبهم"^(٣).
 حب مناجاة الله بكثرة ذكره ودعائه والخلوة به، والقيام بين يديه في ظلمة الليل، والتلذذ بذلك. قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: "أهل الليل في ليلهم ألد من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء"^(٤).

كلما قويت محبة العبد لربه ذاق حلاوة الطاعات من ذكر وصلاة وتلاوة ودعاء، وإذا ضعفت أغلق على قلبه الباب وحيل بينه وبين لذة الطاعة، كما يقول الحسن البصري رحمه الله: «تفقدوا

(١) مختصر منهاج القاصدين (٣٥١)..

(٢) ينظر: حلية الأولياء (٧/ ٢٧٢، ٣٠٠).

(٣) نقله ابن القيم عن بعض العارفين، ينظر: مدارج السالكين (٣/ ٢٩١).

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٤/ ١٤٦).

الحلاوة في الصلاة وفي القرآن وفي الذكر، فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق»^(١).

وإذا أغلق الباب بالذنوب يحتاج إلى فتح بكثرة التوبة والاستغفار، والله المستعان. إن المحب الصادق يرى آثار محبته لله على حياته، فيفرح بمحبوبه لما يراه ويشعر به في قلبه من توفيق وإعانة على عبادة ربه من ذكر ودعاء وقيام وتلاوة.. وغير ذلك من ألوان الطاعات التي يجد نفسه تسارع إليها وتسابق توفيقاً من الله وإعانة، ويجد كذلك حفظ الله له وحمايته من كل المضار والمكاهرة تحفه من كل جانب، كما يقول ابن القيم رحمه الله: "المحب الصادق لا بد أن يقارنه أحياناً فرح بمحبوبه، ويشتد فرحه به، ويرى مواقع لطفه به، وبرّه به، وإحسانه إليه، وحسن دفاعه عنه، والتلطف في إيصاله المنافع والمسار والمبار إليه بكلّ طريق، ودفع المضار والمكاهرة عنه بكلّ طريق"^(٢).

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة (١٠ / ١٤٦).

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٣٩-٣٤٠).

المطلب الثالث: الخوف والخشية والرجاء وأثرها على عبادة الذكر والدعاء، وفيه مسألتان.

المسألة الأولى: الخوف والخشية.

أولاً: التعريف:

عرفهما الراغب رحمه الله بقوله: "الخَوْف: توقُّع مكروه عن أمانة مظنونة أو معلومة، كما أنَّ الرَّجاء والطمع توقُّع محبوب عن أمانة مظنونة أو معلومة، ويضادَّ الخوف الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية"^(١). أما الخشية فقال عنها: "الخَشْيَةُ: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خصَّ العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ

مَنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]"^(٢).

وقال الجرجاني رحمه الله: "الخوف: توقع حلول مكروه، أو فوات محبوب"^(٣). ويقول ابن القيم رحمه الله عن معنى الخشية: "والخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فهي خوف مقرون بمعرفة"^(٤).

(١) المفردات (٣٠٣).

(٢) المفردات (٢٨٣).

(٣) التعريفات (١٠١).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٥٠٨).

ثانياً: من أدلة الكتاب والسنة على الخوف والخشية:

تنوعت نصوص القرآن الكريم في ذكر الخوف والخشية، فمن ذلك:

أمر الله به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

وتارة يجعل الله الخوف والخشية من صفات أوليائه وعباده المتقين، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۖ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۖ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ١٩-٢١].

ويذكر الله ﷻ أنه بسبب خوفهم منه أدخلهم الجنة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جِئْتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وكما في قوله تعالى أيضاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].
وتارة يذكر أن العاقبة في الدنيا لهم كما في قوله ﷻ: ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» وذكرهم، ومنهم: «رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَىٰ نَفْسِهَا، قَالَ: إِيَّيَّ أَخَافُ اللَّهَ»^(١).

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (١٣٣ / ١) ح (٦٦٠)، ومسلم (٧١٥ / ٢) ح (١٠٣١).

ومن أعظم ما يحجز العبد عن المعصية خوفه من الله؛ لما يترتب على ذلك من العقوبة في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥].

ثالثاً: من أقوال العلماء في الخوف والخشية:

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يمسك لسانه ويقول: "هذا الذي أوردني الموارد"، وقال: "يا ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل". وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر رضي الله عنهم (١). وقال عمر رضي الله عنه: "لو نادى منادي من السماء: أيها الناس، إنكم داخلون الجنة كلكم إلا رجلاً واحداً، لحفت أن أكون أنا هو" (٢). وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة رضي الله عنه: رأيت عمر بن الخطاب أخذ تبنه من الأرض فقال: "يا ليتني هذه التبنه، ليتني لم أكن شيئاً، ليت أُمي لم تلدني، ليتني كنت نسيّاً منسياً" (٣). وقال ابن عمر رضي الله عنهما: "كان رأس عمر على فخذي في مرضه الذي مات فيه، فقال لي: ضع رأسي، قال: فوضعت على الأرض، فقال: ويلي وويل أُمي إن لم يرحمني ربي" (٤). وقال المسور بن مخرمة رضي الله عنه: لما طعن عمر قال: "لو أن لي طلاع الأرض" (٥) ذهباً، لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه" (٦).

(١) ينظر هذه الآثار في: حلية الأولياء (١/ ٣٣، ٢/ ٢٣٦)، إحياء علوم الدين (٣/ ١١١)، مختصر منهاج القاصدين (٣١٣)، البداية والنهاية (١/ ٩٥).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٥٣).

(٣) شرح السنة (١٤/ ٣٧٣)، وينظر أيضاً: سير أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون/ ٨٣).

(٤) حلية الأولياء (١/ ٥٢)، شرح السنة (١٤/ ٣٧٣).

(٥) قال الأصمعي: "طلاع الأرض: ملؤها". نقله عنه الجوهري في الصحاح (٣/ ١٢٥٤).

(٦) حلية الأولياء (١/ ٥٢)، شرح السنة (١٤/ ٣٧٣).

وبكى أبو هريرة رضي الله عنه في مرضه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: "أما إني لا أبكي على دنياكم هذه، ولكن أبكي على بُعد سفري وقلة زادي، وإني أمسيت في صعود على جنة أو نار، لا أدري إلى أيتهما يؤخذ بي" ^(١).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه قال به هكذا فطار" ^(٢).

وقال الحسن أيضًا: "لقد مضى بين أيديكم أقوام لو أن أحدهم أنفق عدد هذا الحصى، لخشي أن لا ينجو من عظم ذلك اليوم" ^(٣).

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: "ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب" ^(٤).

وقال ابن القيم رحمه الله: "والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله تعالى، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط" ^(٥).

قال أبو عثمان رحمه الله: "صدق الخوف هو: الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا" ^(٦).

ويقول ابن القيم: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: "الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله" ^(٧).

(١) حلية الأولياء (١/ ٣٨٣)، شرح السنة (١٤/ ٣٧٣).

(٢) البخاري (٨/ ٦٨)، والترمذي واللفظ له (٤/ ٦٥٨).

(٣) شرح السنة (١٤/ ٣٧٤).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ١٦٢)، مدارج السالكين (١/ ٥٠٩).

(٥) مدارج السالكين (١/ ٥١٠).

(٦) مدارج السالكين (١/ ٥١٠).

(٧) مدارج السالكين (١/ ٥١١).

المسألة الثانية: الرجاء.

أولاً: تعريفه:

عرفه ابن القيم رحمه الله بقوله: "هو النظر إلى سعة رحمة الله"^(١).

إذن، الرجاء الطمع في رحمة الله والنظر إلى سعتها.

ثانياً: من أدلة الكتاب والسنة على الرجاء:

أخبر ﷺ عن سعة رحمته فقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:

١٥٦]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقال ﷺ مخاطباً من أسرف على نفسه بالمعاصي: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

دلت الآيات على سعة رحمة الله تعالى، مما يفتح باب الرجاء للعبد، ويحدوه إلى التوبة من ذنوبه، وعليه أن يحذر من اليأس والقنوط من رحمة الله.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ^(٢) خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تَشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»^(٣).

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٧).

(٢) "أي: بما يقارب ملاءها" النهاية في غريب الحديث (٤/ ٣٤) مادة (قرب).

(٣) أخرجه أحمد (٣٥/ ٣٧٥) ح (٢١٤٧٢) عن أبي ذر رضي الله عنه، والترمذي واللفظ له (٥/ ٥٤٨) ح (٣٥٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه وقال: "هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه"، والحاكم بلفظ مقارب عن أبي ذر

وعنه عليه السلام قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ -أَوْ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ- لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَمَلَّأَ خَطَايَاكُمْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُمُ اللَّهُ لَعَفَرَ لَكُمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ -أَوْ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ-، لَوْ لَمْ تُخْطِئُوا لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُخْطِئُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^(١).

دل الحديثان على رحمة الله الواسعة بعباده المذنبين إذا أقبلوا عليه تائبين مستغفرين.

ثالثاً: من أقوال العلماء في الرجاء:

قال الغزالي رحمه الله: "الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود"^(٢).

وقال ابن القيم عليه رحمة الله: "الرجاء حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدار الآخرة، ويطيب لها السير"^(٣).

"وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه"^(٤). وقال شاه الكرماني رحمه الله: "علامة صحة الرجاء حسن الطاعة"^(٥).

وقال أبو علي الروذباري عليه رحمة الله: "الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهب صار الطائر في حد الموت"^(٦).

عليه السلام (٤/ ٢٦٩) ح (٧٦٠٥) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٥٠)

ح (١٢٧)، وحسنه محقق المسند (٣٥/ ٣٧٥) ح (٢١٤٧٢).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢١/ ١٤٦) ح (١٣٤٩٣)، ومسند أبي يعلى (٧/ ٢٢٦) ح (٤٢٢٦)، وقال في مجمع

الزوائد (١٠/ ٢١٥) ح (١٧٦٢٤): "رواه أحمد، وأبو يعلى، ورجاله ثقات"، وقال محقق المسند (٢١/ ١٤٦) ح

(١٣٤٩٣): "صحيح لغيره".

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ١٤٢).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٦).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٣٦).

(٥) مدارج السالكين (٢/ ٣٧).

(٦) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (١٧/ ٨٩) مدارج السالكين (٢/ ٣٧).

المسألة الثالثة: أثر الخوف والخشية والرجاء على عبادة الذكر والدعاء.

المسارعة إلى الخيرات والمسابقة إلى الطاعات وعلى رأس ذلك كثرة ذكرهم ودعائهم لربهم على كل أحوالهم، ويسوقهم لذلك طمعهم في رحمة الله وثوابه وسعة فضله، وخوفهم من عقابه، وهم مع ذلك كانوا لربهم متواضعين متذللين، ولا يستكبرون عن عبادته ودعائه^(١)، كما قال تعالى عن زكريا وأهله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

وفي الآيتين مجموعة من آداب الدعاء المتعلقة بعمل القلب من: الإخلاص، والخوف والرجاء، والحذر من التجاوز في الدعاء والاعتداء فيه^(٢)، والحرص على الإحسان في العبادة لحصول رحمة الله.

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٦ / ٣٨٩-٣٩٠).

(٢) ومن أمثلة الاعتداء في الدعاء: الدعاء على المؤمنين بالشر كالدعاء بالخزي واللعنة، وطلب ما لا يصلح له كطلب منازل الأنبياء، الجهر ورفع الصوت والصياح فيه، ومجاوزة المأمور به.

وقال القرطبي رحمه الله في تفسيره الجامع لأحكام القرآن (٧ / ٢٢٦): "والاعتداء في الدعاء على وجوه: منها الجهر الكثير والصياح.. ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبي، أو يدعو في محال، ونحو هذا من الشطط. ومنها أن يدعو طالباً معصية وغير ذلك. ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب والسنة، فَيَتَخَيَّرُ الْفَاطَا مُفَقَّرَةً وَكَلِمَاتٍ مُّسَجَّعَةً قد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا معول عليها، فيجعلها شعاره ويترك ما دعا به رسوله ﷺ، وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء".

المطلب الرابع: اليقين وأثره على عبادة الذكر والدعاء.

أولاً: تعريفه:

يوجد ارتباط وثيق بين معناه في اللغة وفي الاصطلاح، فهو العلم الذي لا شك فيه. وعرفه الجنيد رحمه الله بقوله: "اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب" (١).

وعرفه شيخ الإسلام رحمه الله بقوله: "أما اليقين فهو: طمأنينة القلب، واستقرار العلم فيه" (٢).

ثانياً: من أدلة الكتاب والسنة على اليقين:

لقد اعتنى القرآن الكريم بهذا العمل القلبي العظيم، فذكر اليقين في آيات كثيرة، ومن ذلك: جعله الله من صفات عباده المتقين، فقال تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]. قال السعدي رحمه الله: "والآخرة اسم لما يكون بعد الموت، وخصه بالذكر بعد العموم؛ لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرغبة والعمل، واليقين: هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل" (٣).

وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ

يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وفي تفسير السعدي لقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾: "أي: أفيطلبون بتوليهم

وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله؟!!

فلا ثمَّ إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية، فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والعدل

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٧٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٢٩).

(٣) تفسير السعدي (٤١).

والقسط، والنور والهدى، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فالموثق هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز بإيقانه ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين عقلاً وشرعاً اتباعه. واليقين هو: العلم التام الموجب للعمل^(١).

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

قال الطبري رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: "يقول تعالى ذكره: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد لما ينالك من أذاهم، وبلغهم رسالة ربك، فإن وعد الله الذي وعدك من النصر عليهم والظفر بهم وتمكينك وتمكين أصحابك وتبائعك في الأرض حق، ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ يقول: ولا يستخفّ حلمك ورأيك هؤلاء المشركون بالله، الذين لا يوقنون بالمعاد، ولا يصدقون بالبعث بعد الممات، فيشطوك عن أمر الله والنفوذ لما كلفك من تبليغهم رسالته"^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايَتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

ومن هذه الآية استنبط شيخ الإسلام رحمه الله أن الإمامة في الدين لا تنال إلا بالصبر واليقين^(٣).

وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢].

(١) تفسير السعدي (٢٣٥).

(٢) تفسير الطبري (١٢٠ / ٢٠).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى (٣٥٨ / ٣).

قال السعدي رحمه الله: "أي: ﴿هَذَا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بَصَّيْرُ لِلنَّاسِ﴾ أي: يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة. ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيهتدون به إلى الصراط المستقيم في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي الرحمة؛ فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم وبقينهم، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند" (١).

ومما ورد في السنة عن اليقين حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ لَقِيَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيِقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرُهُ بِالْجَنَّةِ».

دل هذا الحديث على أن من شروط كلمة التوحيد اليقين.

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذُنُوبِي فَاعْفُرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»، قَالَ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبَحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» (٢).

دل هذا الحديث على أن من شروط أثر سيد الاستغفار على صاحبه أن يقوله بيقين.

ثالثاً: أثر اليقين على عبادة الذكر والدعاء.

إذا تمكن اليقين من القلب طار فرحاً وشوقاً إلى ما يقربه من الله، وعلى رأس ذلك الإكثار من ذكره ودعائه، وشكره على نعمه.

وكذلك طار القلب خوفاً من عذاب الله، وليس شيء ينجي العبد من عذاب الله كمثّل ذكر الله ودعائه.

(١) تفسير السعدي (٧٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧ / ٨) ح (٦٣٠٦).

وَقَالَ ﷺ: «مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(١).

وعن سفيان الثوري رحمه الله قال: "لو أن اليقين، استقر في القلب كما ينبغي لطار فرحاً.. وشوقاً إلى الجنة، أو خوفاً من النار"^(٢).

وقال ابن القيم رحمه الله: "إذا باشر القلب اليقين امتلاً نوراً وانتفى عنه كل ريب وشك، وعوفي من أمراضه القاتلة، وامتلاً شكراً لله وذكرًا له ومحبة وخوفاً"^(٣).

إذا دخل اليقين إلى القلب حضر الدهن واشترك اللسان والقلب في فهم ما يقوله من الذكر والدعاء، وأعظم مقام يحصل فيه ذلك الأمر: الصلاة، وتلاوة القرآن بتدبر.

المقام الأول: الصلاة^(٤) فقد جات نصوص نبوية في ذلك، فمنها:

حديث عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه الطويل وفيه: قَالَ: فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَالْوُضُوءُ حَدَّثَنِي عَنْهُ، قَالَ: «مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضُّضُ، وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَبِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ، وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لَحْيَيْهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنْامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسُحُ رَأْسَهُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنْامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ، إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ حَظِيَّتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(٥).

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٥٩ ت شاكر) موقوفاً على معاذ رضي الله عنه، والبيهقي مرفوعاً في شعب الإيمان (٢/ ٦٢ ط الرشد) ح (٥١٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحكم الألباني بأنه صحيح لغيره كما في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٠٤) ح (١٤٩٥)، وفي الحديث المرفوع زيادة ضعيفة جداً، ومن أراد التوسع فليرجع إلى كتاب سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١٠/ ٧٤٤) ح (٤٩٨٧).

(٢) حلية الأولياء (٧/ ١٧).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١٥٤).

(٤) ينظر في ذلك كتابي أثر عمل القلب على عبادة الصلاة على موقع شبكة الالوكة وموقع صيد الفوائد، والمكتبة الشاملة.

(٥) صحيح مسلم (١/ ٥٦٩) ح (٨٣٢).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الْإِبِلِ، فَجَاءَتْ نَوْبِي فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ، فَأَذْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَأَذْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضْوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(١).

وعن عقبة بن عامر يقول ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُسَبِّحُ^(٢) الْوُضْوءَ، ثُمَّ يَقُومُ فِي صَلَاتِهِ فَيَعْلَمُ مَا يَقُولُ إِلَّا انْقَطَعَ كَيْوَمٍ وَلَدَنَّهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا لَيْسَ عَلَيْهِ ذَنْبٌ»^(٣).

وَعَنْ حُمْرَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ بْنِ عَمَّانَ أَنَّهُ رَأَى عُثْمَانَ بْنَ عَمَّانَ دَعَا بِوُضْوءٍ، فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ إِنْاءِهِ، فَغَسَلَهُمَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَمِينَهُ فِي الْوُضْوءِ، ثُمَّ تَمَضَّضَ وَاسْتَنْشَقَ وَاسْتَنْشَرَّ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ ثَلَاثًا، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ كُلَّ رِجْلٍ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَوَضَّأُ نَحْوَ وُضْؤِي هَذَا، وَقَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضْؤِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٤).

وهذه الأمور التي يقوم بها المسلم في صلاته من تفرغ القلب لله في صلاته، والإقبال على الله في صلاته بقلبه ووجهه، وأن يعلم ما يقوله لسانه في صلاته، ولا يحدث نفسه في صلاته بأمور الدنيا، لا يكون كل ذلك إلا إذا حصل اليقين في القلب وتمكن منه، وتيقن المصلي أنه لا بد من حدوث هذه الأمور وغيرها مما له صلة بالخشوع في الصلاة، وأن يجاهد نفسه لحضور قلبه

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢٠٩) ح (٢٣٤).

(٢) وإسباغ الوضوء: إتمامه وأكماله بغسل العضو الذي يغسل ثلاثاً، وقال ابن عبد البر رحمه الله في معنى الإسباغ: "الإكمال والإتمام من ذلك قول الله ﷻ: ﴿نَمِ نَّيْ﴾ [لقمان: ٢٠]، يعني: أتمها عليكم وأكملها، وإسباغ الوضوء أن يأتي بالماء على كل عضو يلزمه غسله مع إمرار اليد، فإذا فعل ذلك مرة وأكمل فقد توضع مرة".

ينظر: الاستذكار (٢/ ٣٠٢) لابن عبد البر.

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٢) ح (٣٥٠٨)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٩٥) ح (١٩٠).

(٤) أخرجه البخاري (١/ ٤٤) ح (١٦٤)، ومسلم (١/ ٢٠٤) ح (٢٢٦).

وذهنه في صلاته لتكون الصلاة له كما قال صلى الله عليه وسلم: «يَا بَلَّالُ، أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا»^(١)، وقال عليه السلام: «وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٢).

وقال ابن حجر رحمه الله عن الصلاة: "ولا شيء أقر لعين العبد منها، ولهذا جاء في حديث أنس المرفوع: «وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» أخرجه النسائي وغيره بسند صحيح، ومن كانت قرة عينه في شيء، فإنه يود أن لا يفارقه، ولا يخرج منه؛ لأن فيه نعيمه، وبه تطيب حياته، وإنما يحصل ذلك للعابد بالمصابرة على النصب، فإن السالك غرض الآفات والفتور"^(٣).

والمعنى والله أعلم: أنه لا تحصل قرة العين في الصلاة إلا بمجاهدة النفس على الخشوع فيها وحضور القلب وإقباله عليها، وذلك يحتاج إلى كبير مجاهدة مع الاستمرار وعدم الانقطاع، واليقين بذلك يجعل المسلم يحصل على التلذذ بالصلاة، وأن تكون راحة وقرة عين له. وقال بعض السلف رحمه الله: "كابدت"^(٤) الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة"^(٥).

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٦ / ٤) ح (٤٩٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٠٧ / ٢) ح (٧٨٩٢)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لسنن أبي داود (٣٣٨ / ٧) ح (٤٩٨٥) "إسناده صحيح".

(٢) أخرجه أحمد (٤٣٣ / ٢١) ح (١٤٠٣٧)، والنسائي (٦١ / ٧) ح (٣٩٤٠)، والحاكم (١٧٤ / ٢) ح (٢٦٧٦) وصححه ووافقه الذهبي، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (٣٤٥ / ١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٩ / ١) ح (٣١٢٤).

(٣) فتح الباري (١١ / ٣٤٥).

(٤) والمكابدة من كابد الأمر إذا قاساه بمشقة. ينظر: الصحاح (٢ / ٥٣٠)، مقاييس اللغة (٥ / ١٥٣)، لسان العرب (٣ / ٣٧٦) مادة (كبد). أي: بمعنى: جاهد نفسه على بذل أسباب الخشوع فيها.

(٥) ذكره في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢ / ٣٢١)، وسير أعلام النبلاء (٥ / ٢٢٤) والأثر مذكور عن ثابت البناني رحمه الله.

والمقام الثاني: تلاوة القرآن بتدبر^(١).

ولا شك أن لليقين أثر كبير على تلاوة العبد للقرآن العظيم مع حصول التدبر الذي أنزل القرآن من أجله، كما قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

ويكون اليقين له أثر على عبادة تلاوة القرآن وتدبره بعدة أمور، منها:
أولاً: اليقين بالثواب عند تلاوته أو سماعه والعمل به.

أما ثواب التلاوة، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَا مٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»^(٢).

وقال تعالى عن أثر سماع القرآن على صاحبه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

أما مكانة الماهر في التلاوة، ففي لفظ البخاري عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ، مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ، وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ، فَلَهُ أَجْرَانِ»^(٣).

وفي لفظ مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعَتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ»^(٤).

(١) ينظر في ذلك كتابي أثر عمل القلب على تلاوة القرآن وتدبره على موقع شبكة الألوكة، وموقع صيد الفوائد، والمكتبة الشاملة.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ١٧٥ ت شاكر) ح (٢٩١٠) وقال: "هذا حديث صحيح غريب"، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢٩١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ١٦٦ ط السلطانية) ح (٤٩٣٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٥ ط التركية) ح (٧٩٨).

ومكانة قارئ القرآن العامل به، وأثر قراءة القرآن على صاحبها في الدنيا ولو كان منافقاً، فعن أبي موسى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة، طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمر، طعمها طيب ولا ریح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة، طعمها مر، أو حبيث، وريحها مر»^(١).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، لا ریح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، ليس لها ریح وطعمها مر»^(٢).

ثانياً: اليقين بعظمة القرآن له شأن عظيم في التأثير على القلب، الذي يجعله يتلو الآيات وهو يستحضر عظمة من قالها وأنزلها، وعظيم منته من تمكين الإنسان من تلاوتها، وهي التي لو نزلت على الجبال لصدعتها، فيقينه بذلك يجعله يستشعر عظمة القرآن الموجه له، فيتأثر قلبه ووجدانه وجوارحه بالآيات، فيخشع قلبه وتدمع عينه، قال تعالى في بيان ذلك: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمُثُلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۚ مَن يَشَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

(١) أخرجه البخاري بهذا اللفظ (٦/ ١٩٨ ط السلطانية) ح (٥٠٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٧٧ ط السلطانية) ح (٥٤٢٧)، ومسلم (٢/ ١٩٤ ط التركية) ح (٧٩٧).

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] .

وقال تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا لَهُ فَرَقْنَهُ لِقَرَاءَتِهِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٩] .

ومما يعين على الإكثار من ذكر الله تعالى، وكثرة دعائه، مع الاستمرار والحرص على عدم الانقطاع، اليقين بما رتبته الله من أثر هذه العبادة على صاحبها في الدنيا والآخرة من ثواب عظيم وحفظ ورعاية في الدين والدنيا، وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث خاص.

المطلب الخامس: التوكل وأثره على عبادة الذكر والدعاء.

أولاً: التعريف:

قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى التوكل: "هو الثقة بالله" ^(١).
وقال الإمام أحمد رحمه الله: "وجملة التوكل: تفويض الأمر إلى الله - جل ثناؤه - والثقة به" ^(٢).
وعرفه ابن رجب رحمه الله بقوله: "التوكل: هو صدق اعتماد القلب على الله ﷻ في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكلة الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه" ^(٣).
وقال الجرجاني عليه رحمة الله: "التوكل: هو الثقة بما عند الله، واليأس عما في أيدي الناس" ^(٤).

(١) زاد المسير في علم التفسير (١/ ٣٢٠) لابن الجوزي.

(٢) شعب الإيمان (٢/ ٣٩٠).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٩٧).

(٤) التعريفات (٧٠).

وقال بعضهم: "التوكل: التعلق بالله في كل حال" (١).

وقيل: "التوكل: قطع علائق القلب بغير الله" (٢).

وقرب معناه ابن القيم رحمه الله بشيء من التوضيح، فقال: "هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرد الخلق والتدبير، والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتماداً عليه، وتفويضاً إليه، وطمأنينة به، وثقة به، وبقينا بكفايته لما توكل عليه فيه" (٣).

ثانياً: التوكل في الكتاب والسنة:

جاء التوكل في القرآن الكريم على أحوال منها:

الأمر به كما في قوله تعالى لنبيه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، وقوله

تعالى للمؤمنين: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

جعله الله من صفات المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا

تَلَيْتَ عَلَيْهِمْ أَيْتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وذكره في مقامات متعددة منها:

الأمر بالتوكل في مقام العبادة، كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

الأمر به في مقام الدعوة، كما في قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ

تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٦).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١١٧).

(٣) مدارج السالكين (١/ ١٠٣).

التوكل في مقام الجهاد والقتال في سبيله، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ
الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا
وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ [آل عمران: ١٢١، ١٢٢].

التوكل في مقام طلب الرزق، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ
حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ
قَدَرًا ﴿٣﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وغير ذلك من المقامات العظيمة التي ذكر فيها التوكل على الله (١).

أما من السنة:

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ
لَرْزَقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ؛ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» (٢).

وقال ابن رجب رحمه الله عند شرحه لهذا الحديث: "وهذا الحديث أصل في التوكل، وأنه من
أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق" (٣). وذلك أنه أثبت للطير مع توكلها على الله بذل
السبب حيث أخبر ﷺ أنها تغدو وتروح في طلب الرزق.

(١) ينظر: أعمال القلوب للمنجد (١٣٨-١٤٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٣٢) ح (٢٠٥)، والترمذي (٤/ ٥٧٣) ح (٢٣٤٤)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح
لا نعرفه إلا من هذا الوجه"، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٤) ح (٤١٦٤)، وصححه الحاكم في كتاب الرقائق (٤/ ٣٥٤)
ح (٧٨٩٤) وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٣٢) ح (٥٢٥٤)، وقال شعيب الأرنؤوط
محقق المسند (١/ ٣٣٢) ح (٢٠٥): "إسناده قوي"، وقال في تحقيقه لسنن ابن ماجه (٥/ ٢٦٦) ح (٤١٦٤):
"حديث صحيح".

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٩٦-٤٩٧).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ -يَعْنِي: إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ-: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، يُقَالُ لَهُ: كُفِّيتَ، وَوُقِّيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ».

ثالثاً: أثر التوكل على عبادة الذكر والدعاء.

لا يحدث أثر الذكر والدعاء على حياة العبد إلا إذا حقق التوكل على الله تعالى، فالذكر والدعاء من أعظم الأسباب لحصول المقصود في الدنيا والآخرة، ودفع المكروه كذلك، ولكن لن يحدث ذلك التأثير إلا إذا حقق العبد التوكل على الله وتعلق قلبه به، مع بذل هذه الأسباب العظيمة.

الذكر والدعاء مع التوكل على الله له أثر عظيم في تعلق القلب بالله تعالى، والثبات على الحق، ودفع أذى الخلق وحصول النصر والتمكين، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [٧٣] فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ

يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿[آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

وقال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ﴾ [٨٨] قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا

أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿[الأعراف: ٨٨-٨٩]

وقال تعالى بعد ذلك: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [٩٠] فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿[الأعراف: ٩٠-٩١]

ويقول ابن القيم رحمه الله : "التوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه، أي: كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه"^(١).

(١) التفسير القيم (٦٤٩) لابن القيم.

المطلب السادس: الورع وأثره على عبادة الذكر والدعاء.

أولاً: التعريف:

قال عنه شيخ الإسلام: "وأما الورع فإنه الامساك عما قد يضر، فتدخل فيه المحرمات والشبهات؛ لأنها قد تضر، فإنه من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يواقعه"^(١).
وقال ابن القيم في معناه: "يعني أن يتوقى الحرام والشبه، وما يخاف أن يضره أقصى ما يمكنه من التوقي"^(٢).

وقال الجرجاني: "الورع هو: اجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات"^(٣).

ثانياً: الورع في السنة:

ورد الورع في نصوص السنة، ومن ذلك:

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ - وَأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعِيهِ إِلَى أُذُنَيْهِ -: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمَهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقُلْبُ»^(٤).

قال الخطابي رحمه الله: "هذا الحديث أصل في الورع وفيما يلزم الإنسان اجتنابه من الشبهة والريب"^(٥).

(١) الزهد والورع والعبادة (٥٠) لابن تيمية.

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٥).

(٣) التعريفات (٢٥٢).

(٤) أخرجه البخاري (١ / ٢٠) ح (٥٢)، ومسلم واللفظ له (٣ / ١٢١٩) ح (١٥٩٩).

(٥) معالم السنن (٣ / ٥٦).

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ»^(١).

ودل الحديث على مكانة الورع، وأنه خير الدين، فعلى الداعية الموفق الحرص على هذا العمل القلبي العظيم والتخلق به، فإنه من الصفات العظيمة التي لها أثر في نجاح الداعية في دعوته. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]»، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ: «يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشَعَتْ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»^(٢).

قال ابن رجب رحمه الله: "ومن أعظم ما يحصل به طيبة الأعمال للمؤمن طيب مطعمه، وأن يكون من حلال، فبذلك يزكو عمله"^(٣).

وهذا أعظم الورع الذي يثمر التوفيق للداعية في دعوته، وما قد يحصل من خلل في الدعوة وقصور، إذا فتشت وجدته من قبل عدم التورع عن المطعم أو المشرب أو الملبس أو المركب أو المال المشتبه فيه.

(١) أخرجه الحاكم في كتاب العلم (١/ ١٧٠) ح (٣١٤)، وقال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٥٠) ح (١٠٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٧٧٦) ح (٤٢١٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٧٠٣) ح (١٠١٥).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٦٠).

وَعَنْ أَبِي الْخَوَرَاءِ السَّعْدِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: حَفِظْتُ مِنْهُ: «دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ»^(١).

وعلق ابن رجب على هذا الحديث فقال: "وهذا هو الورع، وبه يحصل كمال التقوى"^(٢). وهذا الحديث قاعدة عظيمة في الورع.

ثالثاً: أقوال العلماء في الورع:

وقال رحمه الله: "أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرم الله، وصدق النية فيما عند الله ﷻ"^(٣).

وقال حسان بن أبي سنان رحمه الله: "ما شيء أهون من الورع، إذا رابك شيء فدعه"^(٤). وعلق ابن رجب رحمه الله على مقولة حسان فقال: "وهذا إنما يسهل على مثل حسان رحمه الله"^(٥).

وقال الشافعي رحمه الله: "أعز الأشياء ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف"^(٦).

وعن الضحاك قال: "لقد رأيتنا وما يتعلم بعضنا من بعض، إلا الورع"^(٧).

وعن الحسن البصري رحمه الله قال: "أفضل العبادة التفكير والورع"^(٨).

(١) أخرجه الترمذي (٤ / ٦٦٨) ح (٢٥١٨)، وقال: "وهذا حديث صحيح"، والنسائي واللفظ له (٨ / ٣٢٧) ح (٥٧١١)، وصححه الحاكم (٢ / ١٥) ح (٢١٦٩) ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١ / ٦٣٧) ح (٣٣٧٧).

(٢) فتح الباري لابن رجب (١ / ٢٢٦).

(٣) لم أعر عليه في كتاب الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا، وقد نقله ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢ / ٣٣٦) ونسبه إليه.

(٤) جامع العلوم والحكم (١ / ٢٨٠).

(٥) جامع العلوم والحكم (١ / ٢٨٠).

(٦) صفة الصفوة (١ / ٤٣٥) لابن الجوزي، جامع العلوم والحكم (١ / ٤٠٨).

(٧) الورع لابن أبي الدنيا (٥١).

(٨) الورع لابن أبي الدنيا (٥٣).

قال الفضيل بن عياض رحمه الله عن الورع: "اجتناب المحارم"^(١).
وقال الفضيل أيضًا: "أشد الورع في اللسان"، وأثر هذا عن عبد الله بن المبارك عليه رحمة الله^(٢).

وعن طاووس رحمه الله قال: "مثل الإسلام كمثل شجرة، فأصلها الشهادة، وساقها كذا وكذا، وورقها كذا شيء سماه، وثمرها الورع لا خير في شجرة، لا ثمر لها، ولا خير في إنسان، لا ورع له"^(٣).

رابعاً: أثر الورع على عبادة الذكر والدعاء.

لا تسهل عبادة الذكر والدعاء، ويظهر أثرها على صاحبها إلا على من رزقه الله الورع. من أعظم أسباب قبول الذكر والدعاء عبادة الورع عما حرم الله، فعن عمر رضي الله عنه قال: "بالورع عما حرم الله يقبل الله الدعاء والتسبيح"^(٤).
الورع مما يعين على الاستمرار على الإكثار من عبادة الذكر والدعاء.

(١) الورع لابن أبي الدنيا (٦٠).

(٢) الورع لابن أبي الدنيا (٧٧).

(٣) الورع لابن أبي الدنيا (١٠٩).

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٧٦).

المطلب السابع: الصبر وأثره على عبادة الذكر والدعاء.

أولاً: تعريفه:

من أدق تعاريفه تعريف الراغب رحمه الله بقوله: "الصَّبْرُ: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع"^(١).

والذي يظهر لي أن تعريف الراغب تعريف دقيق؛ لأنه يشمل كل أنواع الصبر، فيكون حبساً للنفس على الطاعة وترك المعصية، وعلى القدر المؤلم، والله أعلم. وقيل: هو: "حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش"^(٢). وهذا التعريف يصلح لنوع من الصبر وهو الصبر على القدر المؤلم^(٣). ويقول ابن القيم رحمه الله عن حقيقة الصبر وفائدته: "خلق فاضل من أخلاق النفس، يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها"^(٤). ثانياً: من أدلة الكتاب والسنة على الصبر:

قال الإمام أحمد رحمه الله: "ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعاً"^(٥). وذكر ابن القيم أن الصبر مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً، وذكرها رحمه الله مع ذكر شواهداها، وأذكر منها على سبيل المثال، الآتي^(٦):

الأمر به، نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

(١) المفردات في غريب القرآن (٤٧٤).

(٢) مدارج السالكين (١٥٥ / ٢).

(٣) ينظر: أعمال القلوب للسبب (٢ / ٢١١، ٢١٢).

(٤) عدة الصابرين (١٦).

(٥) نقله ابن القيم عن الإمام أحمد في عدة الصابرين (٧١)، مدارج السالكين (١٥١ / ٢).

(٦) ينظر: مدارج السالكين (١٥١-١٥٢ / ٢).

النهي عن ضده، كقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]، فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة.

الثناء على أهله، كقوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهو كثير في القرآن.

محبه ﷺ لهم، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

معيته ﷺ لهم، وهي معية خاصة، تتضمن: حفظهم ونصرهم، وتأيدهم كقوله: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وهي ليست معية عامة، التي تتضمن: معية العلم والإحاطة.

الجزاء منه ﷺ لهم بغير حساب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ

حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وورد الصبر في السنة في عدة أحاديث منها:

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ» الحديث^(١).

قال النووي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث: "والمراد: أن الصبر محمود ولا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً"^(٢).

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢٠٣) ح (٢٢٣).

(٢) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٠١).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه: إِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَيِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^(١).

دل الحديث على فضيلة الصبر ومكانته العظيمة، ومن يعالج نفسه على الصبر ويعودها عليه، فإن الله يمكنه من نفسه حتى تنقاد له، وأن الصبر أفضل ما يعطاه المرء لكونه غير محدود جزاؤه، فيوفيه الله أجره بغير حساب^(٢)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ

حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ثالثاً: أثر الصبر على عبادة الذكر والدعاء.

قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا^ط وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨-٤٩].

قال السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: "ولما بين تعالى الحجاج والبراهين على بطلان أقوال المكذبين، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن لا يعبأ بهم شيئاً، وأن يصبر لحكم ربه القدري والشرعي بلزومه والاستقامة عليه، ووعدده الله بالكفاية بقوله: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} أي: بمراى منا وحفظ، واعتناء بأمرك، وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة، فقال: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} أي: من الليل.

ففيه الأمر بقيام الليل، أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس، بدليل قوله: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر، والله أعلم"^(٣).

(١) أخرجه البخاري (١٢٢ / ٢) ح (١٤٦٩)، ومسلم (٧٢٩ / ٢) ح (١٠٥٣).

(٢) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٣٠٤ / ١١).

(٣) تفسير السعدي (٨١٨).

إذن هناك ارتباط وثيق بين الصبر والذكر والدعاء، فكل منهم يعين على الآخر، فالذكر والدعاء يعين على الصبر، والصبر أكبر معين للعبد على كثرة الذكر والدعاء، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٧-١٨].

وقال تعالى: ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنََّّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤١-٤٤].

وقال تعالى عنه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَفَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضِرٍّ وَعَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

وقال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨-٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وفي هذه الآيات يظهر -والله أعلم- الارتباط الوثيق بين الصبر والذكر والدعاء.

المبحث الثالث: أعمال لها ارتباط وثيق بصلاح القلب وزيادة أثره على عبادة الذكر والدعاء، وفيه عدة مطالب.

المطلب الأول: تحقيق التوحيد.

وتحقيق التوحيد له أثر عظيم على صلاح القلب، فكلما قوي تحقيق توحيد العبد أثر في قلبه ثمرات جليلة، وعادت بآثارها المباركة العظيمة على ذكره لربه ودعائه، ومن ذلك: تجرد القلب عن التعلق بغير الله أو الخوف من غيره، فلا يدعو إلا ربه في سرائه وضرائه، ولا يتعلق قلبه بسواه، وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله: "فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله تعالى، بل يفرد الله بالمخافة، وقد أمّنه منه، وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد الله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً واشتغلاً به عن غيره، فيرى أن أعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا^(١)، فإن كان مؤمناً فالله يدافع عنه ولا بد، وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه"^(٢).

التوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، وعلى حسب قوته وكماله يكون انشراح صدر صاحبه، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانخراجه، ومنها: النور الذي يقذفه الله في قلب العبد، وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٥).

ويوسعه ويفرح القلب، فإذا فقد هذا النور من قلب العبد ضاق وحرّج، وصار في أضيق سجن وأصعبه^(١).

وحين يكثر العبد من الذكر والدعاء مع صفاء التوحيد ونقاؤه، يجد العبد المؤمن لذة وحلاوة في قلبه، وانشراحاً في صدره، وهي جنة المؤمن المعجلة قبل جنة الآخرة التي تجعله يتشوق إلى الآخرة ويلتذ بذكره لله تعالى.

يحصل لصاحب التوحيد الهدى والكمال والأمن التام في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. قال ابن كثير رحمه الله "أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة"^(٢)، فبالتوحيد يحصل الأمن والاهتداء التام في الدنيا والآخرة، وبالشرك تصرف الهداية عن العبد، ويذهب الأمن ويحصل الخلل فيه في الدنيا وفي الآخرة، وبالتوحيد يجد العبد المؤمن الذاكر لله كثيراً والذي تعلق قلبه بربه فلا يدعو أحداً سواه ولا يلتجئ إلى غيره، ويثمر ذلك أيضاً الهداية التامة والأمن التام في الدنيا والآخرة، فينجيه الله من الكربات والمضائق والشدائد في دنياه وأخراه.

التوحيد مع اعتراف العبد بظلمه وذنبيه من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله ﷻ في قضاء الحوائج، ولذا جاء عن النبي ﷺ في دعوة ذي النون قوله: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ»^(٣).

(١) ينظر: زاد المعاد (٢/ ٢٢-٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٦٥) ح (١٤٦٢)، والترمذي (٥/ ٥٢٩) ح (٣٥٠٥)، والحاكم في المستدرک (٢/ ٦٣٧) ح (٤١٢١)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٣٧) ح (٣٣٨٣).

يقول ابن القيم رحمه الله: "وأما دعوة ذي النون فإن فيها من كمال التوحيد والتنزيه للرب تعالى واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهلم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج" (١).

المطلب الثاني: كثرة التوبة والاستغفار.

لا شك أن للذنوب والمعاصي أثراً كبيراً في إفساد القلب، وضررها عظيم عليه، "وأن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي؟! (٢)".

ومن أكثر ما يعيق العبد عن ذكر الله والخضوع له في الدعاء: وقوعه في الذنوب، واستمراره عليها، وعدم التوبة والاستغفار، مع الإصرار على الذنب، وكل هذه الأدواء الخطيرة على القلوب قد جعل الله لها علاجاً نافعاً، وهو كثرة الاستغفار والتوبة.

قال تعالى في بيان آثار كثرة الاستغفار: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقال ﷻ في بيان ثمرات الاستغفار والتوبة: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

(١) زاد المعاد (٤/ ١٩٠).

(٢) الجواب الكافي (١/ ٩٨).

والذي يظهر من أقوال المفسرين في زيادة القوة أنها قوة حسية ومعنوية، يجدون أثرها في حياتهم^(١).

ولا شك أننا بحاجة ماسة لهذه القوة التي يعينا الله بها على النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة. وما يدل على المكانة العظيمة للتوبة: أمر الله بها، فقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وكذلك حين ننظر إلى حال القدوة ﷺ، وهو الذي قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع هذا يبذل جهداً عظيماً في كثرة الاستغفار والتوبة، فيقول أبو هريرة رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «وَاللَّهِ، إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٢). وَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللَّهِ، وَاسْتَغْفِرُوهُ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ، وَأَسْتَغْفِرُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ»^(٣).

وذلك ما يجعلنا نسابق وننافس في هذا المضمار لنحصل على ثمرة التوبة والاستغفار في حياتنا، ونحمي أنفسنا من أسر قيود الذنوب التي يقيد الشيطان بها العبد ويستولي على قلبه، فينسيه ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢ / ٤٤٥)، تفسير البغوي (٤ / ١٨٣)، تفسير ابن كثير (٤ / ٣٢٩)، فتح القدير للشوكاني

(٢ / ٥٧٣)، تفسير السعدي (٣٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٨ / ٦٧) ح (٦٣٠٧).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣٠ / ٢٢٦) ح (١٨٢٩٤)، والسنن الكبرى للنسائي (٩ / ١٦٨) ح (١٠٢٠٥)،

وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣ / ٤٣٥) ح (١٤٥٢)، وقال محقق المسند شعيب الأرنؤوط

(٣٠ / ٢٢٦) ح (١٨٢٩٤): "حديث صحيح".

ومن رحمة الله بعباده أن فتح لهم باب التوبة، فعَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ وَجَّكَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيُتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيُتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

بل الأمر أعظم من ذلك، فالله يفرح بتوبة عبده فرحاً عظيماً قريبه النبي ﷺ بمثال؛ ليظهر منه عظيم فرحة الرب ﷻ بتوبة عبده.

يَقُولُ ﷺ: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَالَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ»^(٢).

وحتى يحصل من التوبة والاستغفار أثرهما على صلاح القلب فلا بد من مراعاة أمور، نجملها فيما يأتي:

- ١- الندم على ما حصل من الذنب.
- ٢- الإقلاع عن الذنب.
- ٣- العزم على عدم العودة للذنب.
- ٤- وإذا كان الذنب في حقوق الآدميين، فلا بد من إرجاعها لهم أو طلب السماح^(٣).
- ٥- حضور القلب عند التوبة والاستغفار، فتكون التوبة والاستغفار باللسان والقلب، فيحدث أثر التوبة في القلب، وهذا الأثر يحدث -والله أعلم- مع كثرة الاستغفار والتوبة؛ لأنه مع التكرار يحضر القلب ويحدث الأثر فيه، ولذا جاءت النصوص

(١) أخرجه مسلم (٢١١٣/٤) ح (٢٧٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٠٣/٤) ح (٢٧٤٤).

(٣) ينظر: رياض الصالحين (٣٣-٣٤).

بالإكثار من التوبة والاستغفار، كما سبق في الأحاديث من فعل النبي ﷺ وحثه لأُمته.

٦- البحث عن جلساء صالحين يعينونه على الخير، والاستمرار على التوبة، كما في حديث قاتل المائة، فقد حثه العالم على الذهاب إلى قرية الصالحين حتى يجد من يعينونه على توبته^(١).

تنبيه لطيف: وبعد هذا الكلام عن عبادة الاستغفار والتوبة ننبه على أنهما يعدان من ذكر الله، ولكن لأثرهما العظيم على صلاح القلب جعلتهما في هذا المبحث والله الموفق والمعين، ولعلي أنه أكثر على علاقتهما بعمل القلب في الجانب التطبيقي.

(١) وقد دل على هذا حديث أبي سعيد الخدري، أن نبي الله ﷺ قال: «كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدْ لَ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدْ لَ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةً نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ هَا أَنَا سَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ، فَانْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاحْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُم مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فإِلَى أَيَّتَهُمَا كَانَ أَذْنِي فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَذْنِي إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ».

المطلب الثالث: مجاهدة النفس على الإخلاص والمتابعة ومحاسبتها على ذلك.

وقد سبق الكلام على الإخلاص والمتابعة، ولكن في هذا المسألة نركز على قضية مجاهدة النفس على الإخلاص لله تعالى والمتابعة لهدي النبي ﷺ في عبادة الذكر والدعاء وغيرها. والمقصود بالمجاهدة هنا: هو حمل النفس على عبادة الإخلاص والمتابعة وتفقدتها في ذلك، وكفها عن ضد ذلك من: الرياء والعجب وتعلق القلب بغير الله، وتفقد القلب وتطهيره من الآفات التي تفسد الإخلاص والمتابعة، والمحاسبة الدقيقة المستمرة على ذلك حتى يتطهر القلب من الأمراض والآفات.

وقال تعالى لبيان أثر المجاهدة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. "وقيل: لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة، والطريق المستقيمة هي التي يوصل بها إلى رضا الله ﷻ". وقيل: المجاهدة هي الصبر على الطاعات، قال الحسن: أفضل الجهاد مخالفة الهوى،.. وقال سهل بن عبد الله: والذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا^(١). المسألة الثانية: محاسبة النفس على قضية الإخلاص والمتابعة في عبادة الذكر والدعاء وسائر العبادات.

محاسبة النفس على الإخلاص والمتابعة قبل العمل وأثناء العمل وبعده، من الأعمال التي لها أثر في صلاح القلب المؤدي إلى كثرة الذكر وخضوع القلب لله تعالى وتعلقه به. ومحاسبة النفس تدخل تحت معنى قوله تعالى: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]. قال ابن كثير رحمه الله: "أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم"^(٢).

(١) ينظر: تفسير البغوي (٦/ ٢٥٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٧).

ويقول السعدي رحمه الله: "وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدوها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة"^(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال قتادة رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿فُرُطًا﴾: "أضاع أكبر الضيعة، أضاع نفسه، [وغبن]^(٢) مع ذلك.. تجده حافظاً لماله، مضيعاً لدينه"^(٣).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تُحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر؛ يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية"^(٤).

ومما نقله ابن الدنيا رحمه الله في محاسبة النفس عن الحسن البصري رحمه الله الأقوال الآتية: "إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همته"^(٥).

قال^(٦): "المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله عز وجل، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من

(١) تفسير السعدي (٨٥٣).

(٢) في الأصل: (وعسى)، وفي إغاثة اللفهان (١ / ١٣٢): (وغبن)، وهو الصحيح الذي يستقيم به المعنى، والله أعلم.

(٣) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (٢٥) مع بعض التصرف اليسير.

(٤) الزهد لأحمد بن حنبل (٩٩).

(٥) محاسبة النفس (٢٥).

(٦) أي: الحسن رحمه الله.

غير محاسبة، إن المؤمن يفجؤه الشيء ويعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما صلة إليك هيهات، حيل بيني وبينك. ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: هيهات.. وما لي ولهذا؟! والله ما أعذر بهذا، والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله.

إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم.

إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقي الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله^(١).

وهنا أحب أن أختصر كلاماً رائعاً نافعاً لابن القيم رحمه الله وهو يتحدث عن فوائد محاسبة النفس، فيقول: "وفي محاسبة النفس عدة مصالح:

منها: الاطلاع على عيوبها، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيوبها مَقَّتْها في ذات الله.

وقال مُطَرِّفٌ في دعائه بعرفة: «اللهم لا تَرُدَّ الناس لأجلي»^(٢).

وقال أيوب السخيتاني: «إذا ذُكر الصالحون كنتُ عنهم بمَعَزِلٍ»^(٣).

وقال يونس بن عبيد: «إني لأجد مئة خصلة من خصال الخير؛ ما أعلم أن في نفسي منها واحدة»^(٤).

وقال محمد بن واسع: «لو كان للذنوب ريح ما قَدَرَ أحد أن يجلس إليَّ»^(٥).

فالنفس داعية إلى المهالك، مُعِينَةٌ للأعداء، طامحة إلى كل قبيح، متَّبعة لكل سوء؛ فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة.

(١) محاسبة النفس (٦٠).

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص ٧٢).

(٣) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص ٧٦).

(٤) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص ٨٠).

(٥) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص ٨٢).

فالنعمة التي لا حَظَر لها: الخروج منها، والتخلصُ من رِقِّها، فإنها أعظم حجاب بين العبد وبين الله، وأعرفُ الناس بها أشدُّهم إزراءً عليها، ومقتًا لها.

ومَقَّتْ النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو العبد به من الله سبحانه في لحظة واحدة أضعافٍ أضعافٍ ما يدنو بالعمل.

ذكر ابن أبي الدنيا عن مالك بن دينار، قال: «إن قومًا من بني إسرائيل كانوا في مسجد لهم في يوم عيد، فجاء شاب حتى قام على باب المسجد، فقال: ليس مثلي يدخل معكم، أنا صاحب كذا، أنا صاحب كذا؛ يزري على نفسه، فأوحى الله إلى نبيهم أن فلانًا صدِّيق»^(١). وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الحسن بن أَتَش، حدثنا منذر، عن وهب: «أن رجلًا سائحًا عبد الله عز وجل سبعين سنة، ثم خرج يومًا، فقلَّ عمله، وشكا إلى الله منه، واعترف بذنبه، فأتاه آتٍ من الله فقال: إن مجلسك هذا أحب إليَّ من عملك فيما مضى من عمرك»^(٢).

وفي كتاب «الزهد» للإمام أحمد: «أن رجلًا من بني إسرائيل تعبَّد ستين سنة في طلب حاجة، فلم يظفر بها، فقال في نفسه: والله لو كان فيك خير لظفرت بحاجتك، فأُتِيَ في منامه، فقيل له: أرايت إزراءك على نفسك تلك الساعة؟ فإنه خير من عبادتك تلك السنين»^(٣). ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك حق الله عليه. ومن لم يعرف حق الله عليه فإن عبادته لا تكاد تُجدي عليه، وهي قليلة المنفعة جدًّا.

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص ٧٧).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص ٤٧).

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (ص ٣٠٣) لفظ الزهد فيه اختلاف وهذا لفظه: عَنِ ابْنِ مُنَبِّهٍ، قَالَ: "كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ تَعَبَّدَ زَمَانًا ثُمَّ طَلَبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَاجَةً وَصَامَ سَبْعِينَ سَبْتًا يَأْكُلُ كُلَّ سَبْتٍ إِحْدَى عَشْرَةَ تَمْرَةً قَالَ: فَطَلَبَ إِلَى اللَّهِ حَاجَةً فَلَمْ يُعْطَهَا قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّفْسُ مِنْ قَبْلِكَ أُتَيْتُ، لَوْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ لَأُعْطِيتَ حَاجَتَكَ وَلَكِنْ لَيْسَ عِنْدَكَ خَيْرٌ، فَتَنَزَّلَ إِلَيْهِ سَاعَتِيذٍ مَلَكٌ، فَقَالَ: يَا ابْنَ آدَمَ سَاعَتُكَ هَذِهِ الَّتِي أُرْزِيتَ فِيهَا عَلَى نَفْسِكَ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَتِكَ كُلِّهَا الَّتِي مَضَتْ وَقَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ حَاجَتَكَ الَّتِي سَأَلْتَ."

فَمِنْ أَنْفَعِ مَا لِلْقَلْبِ: النظر في حق الله على العبد؛ فَإِنْ ذَلِكَ يُورِثُهُ مَقْتٌ نَفْسِهِ، وَالْإِزْرَاءُ عَلَيْهَا، وَيُخْلِّصُهُ مِنَ الْعُجْبِ وَرُؤْيَا الْعَمَلِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابُ الْخُضُوعِ وَالذَّلِّ وَالْإِنْكَسَارِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، وَالْيَأْسَ مِنْ نَفْسِهِ، وَأَنَّ النِّجَاةَ لَا تَحْصُلُ لَهُ إِلَّا بِعَفْوِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَإِنْ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُطَاعَ وَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ.

فَمَنْ نَظَرَ فِي هَذَا الْحَقِّ الَّذِي لِرَبِّهِ عَلَيْهِ عِلْمٌ الْيَقِينُ أَنَّهُ غَيْرُ مُؤَدٍّ لَهُ كَمَا يَنْبَغِي، وَأَنَّهُ لَا يَسْعَاهُ إِلَّا الْعَفْوُ وَالْمَغْفِرَةُ، وَأَنَّهُ إِنْ أُحِيلَ عَلَى عَمَلِهِ هَلَكَ.

فَهَذَا مَحَلُّ نَظَرِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ وَبِنَفْسِهِمْ، وَهَذَا الَّذِي أَيَّسَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَعَلَّقَ رَجَاءَهُمْ كُلَّهُ بِعَفْوِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ حَالَ أَكْثَرِ النَّاسِ وَجَدْتَهُمْ بَضْدَ ذَلِكَ، يَنْظُرُونَ فِي حَقِّهِمْ عَلَى اللَّهِ، وَلَا يَنْظُرُونَ فِي حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَمِنْ هَاهُنَا انْقَطَعُوا عَنْ اللَّهِ، وَحُجِبَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَالشُّوقُ إِلَى لِقَائِهِ، وَالتَّوَنُّ بِذِكْرِهِ، وَهَذَا غَايَةُ جَهْلِ الْإِنْسَانِ بِرَبِّهِ وَبِنَفْسِهِ.

فَمَحَاسِبَةُ النَّفْسِ هُوَ نَظَرُ الْعَبْدِ فِي حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ أَوَّلًا، ثُمَّ نَظَرُهُ هَلْ قَامَ بِهِ كَمَا يَنْبَغِي ثَانِيًا؟ وَأَفْضَلُ الْفِكْرِ الْفِكْرُ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ يَسِيرُ الْقَلْبُ إِلَى اللَّهِ، وَيَطْرَحُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ذَلِيلًا خَاضِعًا، مَنكسرًا كَسْرًا فِيهِ جَبْرُهُ، وَمَفْتَقَرًا فَقْرًا فِيهِ غِنَاهُ، وَذَلِيلًا ذَلًّا فِيهِ عِزُّهُ، وَلَوْ عَمِلَ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا عَسَاهُ أَنْ يَعْمَلَ، فَإِذَا فَاتَهُ هَذَا فَالَّذِي فَاتَهُ مِنَ الْبِرِّ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي أَتَى بِهِ.

وَمِنْ فَوَائِدِ نَظَرِ الْعَبْدِ فِي حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ: أَنَّهُ لَا يَتْرَكُهُ ذَلِكَ يُدِلُّ^(١) بِعَمَلٍ أَصْلًا، كَائِنًا مَا كَانَ، وَمَنْ أَدَلَّ بِعَمَلِهِ لَمْ يَصْعَدْ إِلَى اللَّهِ، كَمَا ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ، أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنِّي لِأَقُومَ فِي صَلَاتِي؛ فَأُبْكِي حَتَّى يَكَادُ يَنْبِتُ الْبَقْلُ مِنْ دُمُوعِي، فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ إِنْ تَضَحَكْتَ وَأَنْتَ تَعْتَرِفُ لِلَّهِ بِخَطِيئَتِكَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبْكِي وَأَنْتَ تُدِلُّ بِعَمَلِكَ؛ فَإِنْ صَلَاةَ الْمَدِلِّ لَا تَصْعَدُ فَوْقَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَوْصِنِي، قَالَ: عَلَيْكَ بِالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ لَا تَنَازِعَهَا أَهْلَهَا، وَأَنْ تَكُونَ كَالنَّحْلَةِ، إِنْ أَكَلْتَ أَكَلْتَ طَيِّبًا، وَإِنْ وَضَعْتَ وَضَعْتَ طَيِّبًا، وَإِنْ وَقَعْتَ عَلَى عُودٍ لَمْ تَضُرَّهُ وَلَمْ

(١) أي: يعجب بعمله.

تكسره، وأوصيك بالنصح لله عز وجل نُصَح الكلب لأهله؛ فإنهم يُجِيعونه ويطردونه؛ ويأبى إلا أن يحوطَهم وينصحهم»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سيّار، حدثنا جعفر، حدثنا الجريري، قال: «بلغني أن رجلاً من بني إسرائيل كانت له إلى الله تعالى حاجة، فتعبد واجتهد، ثم طلب إلى الله حاجته، فلم ير نجاحاً، فبات ليلةً مُزريّاً على نفسه، وقال: يا نفس! مالك لا تُقضى حاجتك؟ فبات محزوناً قد أذى على نفسه، وألزم الملامّة نفسه، فقال: أما والله ما من قَبَل ربي أُتيتُ، ولكن من قَبَل نفسي أُتيتُ، فبات ليلةً مُزريّاً على نفسه، وألزم الملامّة نفسه، فقُضيت حاجته»^(٢). انتهى ما اختصرته من كتاب إغاثة اللفهان^(٣).

المطلب الرابع: تعلق القلب بالله وأثره على عبادة الذكر والدعاء.

من أبرز آثار محبة الله والخوف منه ورجائه ومعرفته حق المعرفة تعلق القلب به ﷻ، وإذا تعلق القلب بالله ظهرت آثار ذلك على المؤمن، ومن تلك الآثار كثرة ذكره لله، مع كثرة إلحاحه على الله في دعاء خاشع مستمر لا يتوقف العبد عنه في كل الأحوال، وسيأتي مزيد بيان لهذا، ولتعلق القلب بالله علامات كثيرة، ودونك أبرزها في المسائل الآتية:

المسألة الأولى: شدة محبته لله تعالى.

ومن العلامات الدالة على تعلق قلب المؤمن بربه شدة حبه له، قال تعالى عن المؤمنين بالله حقاً: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: "ولحبهم لله وتماهم معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجئون في جميع أمورهم إليه"^(٤).

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص ٨١).

(٢) قال محقق إغاثة اللفهان: لم أقف عليه.

(٣) إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان (١/ ١٤٣-١٥٤ ط عطاءات العلم).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٤٧٦).

إن القلب الذي تعلق بربه لا يخشى أحدًا سواه، ولا يهرب من صولة الباطل، بل يزيده ذلك ثباتًا وصدقًا مع الله، قال الله تعالى عن الصادقين الذين حاول الأعداء أن يخوفوهم بقوة أهل الكفر وإمكاناتهم وعدتهم وعددهم، فقال المؤمنون الصادقون كما ذكر الله عنهم: ﴿الَّذِينَ

المسألة الثالثة: كثرة ذكره لله تعالى:

والآية تدل على حال أولي الألباب المحبين لله، في صلاتهم، وفي سائر أحوالهم؛ يدامون على ذكر الله بالقلب واللسان في جميع الأحوال؛ لأن الإنسان قلٌّ أن يخلو عن واحد من هذه الحالات الثلاث^(١).

(١) ينظر: تفسير البغوي (٢ / ١٥٢)، وتفسير السعدي (١٦١).

(٢) أخرجه مسلم (١ / ٢٨٢) ح (٣٧٣).

والحديث يدل على جواز ذكر الله على كل الأحوال وفي كل الأحيان: متطهراً، ومحدثاً، وجنباً، وقائماً، وقاعداً، ومضطجعاً، وماشياً، إلا أنه يستثنى من ذلك حال الجلوس على البول والغائط، وحالة الجماع، فإنه يكره ذكر الله في هذه الحالات، والصحيح أن الكراهة كراهة تنزيه وليست كراهة تحریم، فلو ذكر الله في هذه الحالات، فلا إثم عليه^(١)، والله أعلم.

وكثرة ذكر الله على كل الأحوال وفي كل الأحيان، لها أثرها على نفس المؤمن، فيجد من طمأنينة القلب والقوة والنشاط ما يعينه على القيام بعبادته خير قيام.

وذكر ابن القيم رحمه الله من فوائد الذكر: "أنه قُوْتُ القلب والروح، فإذا فقد العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته.

وحضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي، أو كلاماً قريباً من هذا، وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها؛ لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلاماً هذا معناه^(٢).

والمؤمن المتعلق بالله تجده ذاكرةً لله بقلبه ولسانه في كل أحواله، قائماً وقاعداً وعلى جنبه، يجد فيه لذته، وطمأنينة قلبه، وما يعينه على أعباء طريقه إلى الله، ويجعله بإذن الله ثابتاً على مبدئه، صابراً على ما يلقاه في ذات الله؛ لأنه يشعر بقرب الله منه ورعايته له وحفظه وحمايته، وكما في الحديث القدسي يقول الله تعالى: «وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَكَّرَنِي»^(٣).

المسألة الرابعة: كثرة دعاء الله والالتجاء إليه في جميع الأحوال:

ومن آثار تعلق القلب بالله: كثرة الدعاء والالتجاء إلى الله في جميع الأحوال، والمؤمن صاحب القلب الحي يدرك مكانة الدعاء وأثره على حياته وعلى عبادته، فقلبه موصول بالله، يشعر بقربه منه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ

(١) ينظر: شرح النووي على مسلم (٤/ ٦٥، ٦٨).

(٢) الوابل الصيب (٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (٩/ ١٢١) ح (٧٤٠٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١) ح (٢٦٧٥).

الدَّاعِ إِذَا دَعَا ﴿البقرة: ١٨٦﴾، وقال ﷺ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

فهو يشعر بحاجته الماسة لربه، فيقبل على الدعاء والتضرع والابتهاال أن يعينه على عبادة ربه، وأن يوفقه ويسدده في كل تصرف يقوم به، وأن يفتح له أبواب الخير والتوفيق، ويسأل ربه أن يعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته، وهو يعلم أثر الدعاء ومكانته العظيمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الدُّعَاءِ»^(١)، وقال ﷺ: «لَا يَرُدُّ الْقَضَاءُ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ»^(٢)، وقال ﷺ: «وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرُ إِلَّا الدُّعَاءُ» الحديث^(٣).

وكثرة الدعاء والالتجاء إلى الله مرتبط كذلك بقضية عظيمة التي سيكون الحديث عنها في علامة تعلق القلب بالله الآتية:

المسألة الخامسة: يخاف على قلبه من التقلب، فلا يأمن مكر الله:

من العلامات الدالة على تعلق القلب بربه: خوفه على قلبه من التقلب، وعدم أمنه من مكر الله؛ لأن الأمن من مكر الله من صفات أهل الخسارة الذين غفلوا عن الله، ونسوا يوم الحساب، وتمادوا في غيهم وضلالهم، يقول تعالى محذراً منهم ومنذراً: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٦٠ / ١٤) ح (٨٧٤٨)، والترمذي (٤٥٥ / ٥) ح (٣٣٧٠) وقال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ الْقَطَّانِ..»، وابن ماجه (١٢٥٨ / ٢) ح (٣٨٢٩)، وحسن إسناده الألباني في صحيح الجامع (٩٥١ / ٢) ح (٥٣٩٢)، وكذلك شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لسنن ابن ماجه (٦ / ٥) ح (٣٨٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٤٤٨ / ٤) ح (٢١٣٩) قال: "وهذا حديث حسن غريب"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٧١ / ٢) ح (٧٦٨٧).

(٣) أخرجه أحمد (٩٥ / ٣٧) ح (٢٢٤١٣)، وابن ماجه (٣٥ / ١) ح (٩٠)، وابن حبان في صحيحه (١٥٣ / ٣) ح (٨٧٢)، والحاكم في المستدرک (٦٧٠ / ١) ح (١٨١٤) وصححه وأقره الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٩ / ٢) ح (١٦٣٨)، وقال محقق المسند (٩٥ / ٣٧) ح (٢٢٤١٣): "حسن لغيره".

يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَّتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ
بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ
اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ [الأعراف: ٩٩].

ومكر الله هو بأسه ونقمته وقدرته عليهم، فيستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويأخذهم في
حال غفلتهم وسهوهم^(١)، ولا يأمن ذلك إلا أهل الغفلة أصحاب القلوب المريضة، قال الحسن
البصري رحمه الله: "المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي
وهو آمن"^(٢).

وقال أيضاً رحمه الله في مقارنة بين حال عباد الله المؤمنين وحال المنافقين، فذكر أن المؤمنين
عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم: "إن المؤمن جمع إيماناً وخشية، والمنافق
جمع إساءة وأمناً"^(٣).

وقال السعدي رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ
اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]: "وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف
البليغ على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمناً على ما معه من الإيمان"^(٤).

بل لا يزال خائفاً وجللاً أن يتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعياً أن يثبت
قلبه على دينه إلى أن يلقاه غير مغير ولا مبدل، دائماً يلهج بالدعاء الذي كان يكثر منه النبي
ﷺ، فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي
عَلَى دِينِكَ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟! قَالَ: «نَعَمْ؛

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥١) تفسير السعدي (٢٩٨).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٥١).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٥٠٧)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/ ٥٤٥) للفيروزآبادي.

(٤) تفسير السعدي (٢٩٨).

إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبَعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»^(١). تجد المؤمن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن، فإن العبد -ولو بلغت به الحال ما بلغت- فليس على يقين من السلامة^(٢).

ولذا يخاف المؤمن على قلبه من الزيغ، فهو دائم الدعاء بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

المسألة السادسة: المسارعة والمسابقة إلى أسباب رضوان الله:

ومما يدل على تعلق القلب بالله المسارعة والمسابقة إلى أسباب مرضاة الله من الفرائض والنوافل، ولا شك أن العبد الذي يريد حياة قلبه لا بد أن يضرب في هذه الغنائم بسهم وافر ويجتهد في ذلك؛ ليكون هذا الزاد من أعظم الأسباب المعينة على القيام بمهمته في الحياة الدنيا والآخرة.

المسألة السابعة: كثرة تلاوة القرآن الكريم مع التدبر:

ومن العلامات الدالة على تعلق القلب بالله تعالى: كثرة تلاوة القرآن الكريم مع تدبره وحضور القلب والتأثر بآياته ونزولها إلى القلب، وهكذا الداعية صاحب القلب الحي يكون حاله مع

القرآن الكريم كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي

تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى

ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا

سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ

خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

(١) أخرجه أحمد (١٦٠ / ١٩) ح (١٢١٠٧)، والترمذي (٤ / ٤٤٨) ح (٢١٤٠) وقال الترمذي: "هذا حديث حسن"،

وابن ماجه (٢ / ١٢٦٠) ح (٣٨٣٤)، حكم الألباني بصحته في مشكاة المصابيح (٣٧ / ١) ح (١٠٢)، ، قال محقق

المسند (١٦٠ / ١٩): "إسناده قوي على شرط مسلم".

(٢) ينظر: تفسير السعدي (٢٩٨).

وقد نالوا بركة القرآن الكريم بتدبرهم لآياته كما قال تعالى، وهو يحث عباده على تدبر كتابه الذي أنزله من أجل ذلك، فقال ﷺ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وكيف لا يتأثرون بالقرآن وهو الذي لو نزل على الجبال لتصدعت من خشية الله؟! كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فإذا تعلق القلب بالله أقبل على تلاوة كتابه متدبراً له، يجد فيه طمأنينة قلبه وخشوعه، وزيادة إيمانه وثباته.

المسألة الثامنة: كثرة التوبة والاستغفار:

ومن علامات تعلق القلب بالله تعالى: كثرة التوبة والاستغفار، فقلب العبد الموصول بربه يشعر بتقصيره في حق ربه، ويشعر بأثر الذنب، فهو دائم الاستغفار والتوبة، كما قال تعالى عن عباده المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وها هو سيد المرسلين وإمام المتقين وقادة الناس أجمعين، يستغفر في المجلس الواحد ويطلب من ربه أن يتوب عليه مائة مرة، كما في الحديث عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ كُنَّا لَنَعُدُّ

لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «رَبِّ، اغْفِرْ لِي وَثُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»^(١).

وهو الذي قال الله له: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، ومع هذا يستغفر ربه ويطلب منه أن يتوب عليه بهذا العدد في مجلس واحد، فكيف بمن عداه من أهل الذنوب؟!

فإذا أراد المؤمن أن يفتح الله عليه في عبادته والاقبال على ذكره ودعائه، ويزيده قوة إلى قوته،

فليكثر من التوبة والاستغفار الذي يواطئ فيه القلب اللسان، قال تعالى: ﴿وَيَقُومِ

أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ الآية [هود: ٥٢].

وقد سبق الكلام على الاستغفار والتوبة.

المطلب الخامس: تعلق القلب بالدار الآخرة.

تعلق القلب بالدار الآخرة من الأعمال القلبية التي لها زيادة أثر كبير على العبد في الإقبال على كثرة ذكر الله تعالى والدعاء، وهي كذلك لها ارتباط وثيق بتعلق القلب بالله تعالى.

وتعلق القلب بالآخرة يجمع شمل القلب فلا يتفرق في أودية وشعابها، فيستحوذ عليه الشيطان، ويشغله عن ذكر الله وعن توجه القلب إليه في الدعاء، ولذا نجد القرآن يحذر من الاغترار

بالحياة الدنيا قبل الاغترار بالشيطان في أكثر من آية، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ

وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ^{وَوُصِّطَ} فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۝ إِنَّ

(١) أخرجه أبو داود (٨٥ / ٢) ح (١٥١٦)، والترمذي (٤٩٤ / ٥) ح (٣٤٣٤)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح

غريب"، وابن حبان في صحيحه (٢٠٦ / ٣) ح (٩٢٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٨ / ٥) ح

(١٣٥٧)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لسنن أبي داود (٦٢٧ / ٢) ح (١٥١٦): "إسناده صحيح".

الشَّيْطَانُ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦٥﴾ [فاطر: ٦-٥].

وفي هذا والله أعلم إشارة إلى خطر الاغترار بالدنيا فهي مركب الشيطان الذي يخدع به الناس، فيسهل عليه أن يستحوذ على قلوبهم فينسيهم ذكر الله، ويطبق على قلوبهم، فتصيبها الغفل، وتنسى الله والدار والآخرة، وتتعلق بالدنيا ويحدث من آثار ذلك ما ورد في قول النبي ﷺ: "... وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ » الحديث (١).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في بيان خطر التعلق بالدنيا على الأمة: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا» (٢)، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قَلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ! قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ كُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ» (٣)، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْدِرَنَّ

(١) أخرجه الترمذي (٤ / ٦٤٢) ح (٢٤٦٥)، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١ / ٢٦٦) ح (١١٦٩٠)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٢ / ٦٣٣) ح (٩٤٩)، وصححه في صحيح الجامع (٢ / ١١٠٩) ح (٦٥٠٥).
وأخرجه ابن ماجه (٢ / ١٣٧٥) ح (٤١٠٥) بلفظ: «مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ» من حديث زيد بن ثابت ؓ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢ / ٦٣٤) ح (٩٥٠)، وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لسنن ابن ماجه (٥ / ٢٢٧) ح (٤١٠٥).
(٢) الْأَكَلَةُ: جمع آكل والمراد من يأكل الطعام. ينظر: المفردات في غريب القرآن (٨١) لسان العرب (١١ / ١٩) مادة (أكل).

والقصعة: إناء الطعام الضخم الذي يشبع عشرة. ينظر: لسان العرب (٨ / ٢٧٤) مادة (قصع).

(٣) غثاء السيل: ما يحمله السيل من رغوّة وورق الشجر ووسخ ومن فتات الأشياء التي يجدها في مجراه.

ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣ / ٣٤٣)، لسان العرب (١٥ / ١١٦)، المعجم الوسيط (٢ / ٦٤٥) مادة (غثا).

اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»^(١).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٨٢ / ٣٧) ح (٢٢٣٩٧)، وأبو داود واللفظ له (١١١ / ٤) ح (٤٢٩٧)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد بلفظ مقارب (٢٨٧ / ٧) ح (١٢٢٤٤) وقال: "رواه أحمد والطبراني في الأوسط بنحوه، وإسناد أحمد جيد"، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٤٨ / ٢) ح (٩٥٨)، وحسن إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند (٨٢ / ٣٧) ح (٢٢٣٩٧).

المبحث الرابع: أحكام تخص عبادة الذكر أو الدعاء ولها تعلق بعمل القلب، وفيه عدة مطالب.

المطلب الأول: أهمية ذكر القلب.

والذكر بالقلب واللسان هو أعظم الذكر وسيأتي الكلام عنه، ويليه في المرتبة ذكر القلب كما يقول ابن القيم رحمه الله: "وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده؛ لأن ذكر القلب يثمر المعرفة، ويهيج المحبة، ويثير الحياء، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويردع عن التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً من ذلك الإثمار، وإن أثمر شيئاً منها فثمرته ضعيفة"^(١). وذكر القلب نوعان^(٢):

الأول: وهو أرفع الأذكار وأجلها الفكر في عظمة الله وجلاله وملكه وتديره وآياته في سمواته وأرضه.

والثاني: ذكره بالقلب عند أمره بالامتنال، وعند نهيه بالاجتناب، ويتوقف عما أشكل عليه.

المطلب الثاني: أعظم الذكر ما اجتمع فيه القلب واللسان.

وأعظم الذكر ما اجتمع فيه القلب مع اللسان لأنه بهذا يحدث أثر هذه العبادة العظيمة على حياة المسلم، فينتفع بذكره ويرتفع به عند الله؛ ولأن "المراد من الذكر حضور القلب، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر فيحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر، ويتعقل معناه، فالتدبر في الذكر مطلوب كما هو مطلوب في القراءة لاشتراكهما في المعنى المقصود"^(٣).

(١) الوابل الصيب - ط عطاءات العلم (١/ ٢٢١).

(٢) وينظر في ذلك: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/ ١٨٩)، شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٥).

(٣) الأذكار للنووي ت الأرئوط (ص ١٢-١٣).

ويربط الله في القرآن بين ذكره سبحانه وتعالى ووجل القلوب بسبب تدبرها لما تقول، فيقول تعالى في أول صفات المؤمنين حقاً: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

وقال تعالى في أول صفات المحبتين: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٥]. وذكر سبحانه أن المؤمنين تطمئن قلوبهم بذكره، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. وكل هذه الآثار تحدث إذا حضر القلب مع اللسان، فحدث تدبر القلب لذكر الله باللسان، وعند ذلك تظهر هذه الآثار من وجل القلب وخوفه من الله وطمأنينته واستقراره وسعادته وبهجته العظيمة وانسراحه، وكل هذه وغيرها من ثمرات تواطئ القلب واللسان على ذكر الله تعالى.

المطلب الثالث: ذكر اللسان والدعاء بدون حضور القلب.

وأقل أنواع الذكر أثراً على صاحبه ذكر اللسان فقط بدون حضور القلب، وإن كان فيه الأجر العظيم والثواب الجزيل المترتب على ذكر الله، لكنه أقل ممن حضر فيه القلب، يقول ابن القيم رحمه الله: "والله تعالى لا يضيع أجر ذكر اللسان المجرد، بل يثيب الذاكر وإن كان قلبه غافلاً، ولكن ثواب دون ثواب" (١).

ويقول ابن علان في شرحه لأذكار النووي: "وأما ذكر اللسان مجرداً فهو أضعف الأذكار وفيه فضل عظيم كما جاءت به الأحاديث" (٢).

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص ٣٠٩ ط العلمية).

(٢) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية (١ / ١٠٧).

وقد سبق الكلام عن فوائد الذكر، وكما ورد في الحديث، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَّتَاهُ "(١).

(١) أخرجه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم (٩/ ١٥٣ ط السلطانية)، وأحمد (١٦/ ٥٦٨ ط الرسالة) ح (١٠٩٦٨)، وابن ماجه (٢/ ١٢٤٦ ت عبد الباقي) ح (٣٧٩٢)، والحاكم - ط العلمية (١/ ٦٧٣) ح (١٨٢٤) وصححه وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٨٦) ح (١٩٠٦)، وصححه محقق المسند ح (١٠٩٦٨).

المطلب الرابع: التضرع في الدعاء وعلاقته بالقلب.

قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

يقول الشنقيطي رحمه الله في معنى التضرع: " (التضرع): التذلل والخضوع لله، وكثيراً ما يظهر أثر ذلك في الدعاء بأن يبتهل ذلك الذليل الخائف من الله يبتهل متضرعاً يناجي ربه (جل وعلا). و (الضارع): هو الذليل الخائف، و (الضراعة): الذل والخشوع والخوف" (١).

وعلى هذا فهناك ارتباط وثيق بين القلب والتضرع، فلا يكون العبد متضرعاً إلى ربه إذا كان القلب متوجهاً إلى الله ومتعلقاً به؛ لأن التضرع خضوع وتذلل لله في القلب يظهر أثره على الجوارح في شدة رفع اليدين والإلحاح على الله والإخلاص لله وسلامة القلب عند ذلك من التعلق بغير الله.

والله يحب من عباده أن يسمع تضرعهم ليرفع عنهم ما نزل بهم من بلاء، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (٤٢) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

ودونك هذه الأمثلة من القرآن العظيم لقوم هم أعداء لله ويعبدون غيره لكن في حالة الشدة تضرعوا إلى الله بإخلاص له، فاستجاب دعاءهم مع علمه سبحانه أنهم سيعودون إلى ما كانوا عليه؛ لكن لما حصل في الدعاء التضرع والإخلاص لم يرد الله دعوتهم، فكيف بك يا أخي

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (١/ ٢٤٦).

المسلم، وأنت تحب الله وتريد القرب منه، فإذا دعوت فتضرع وإخلص له واسمعه بقلبك، وهو يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].
 ووالله لن تجد قرباً من الله أشد وأعظم من هذا القرب منك فهيناً لك أيها المسلم بهذه العطايا العظيمة من ربك تبارك وتعالى.

ونعود إلى ذكر الأمثلة التي سبق الكلام عنها قريباً:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٠-٣٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيْكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنُ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيْكُمْ مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

وتأمل في هذه الأمثلة ترى مظاهر التضرع فيها واضحة وتعلق القلب بالله، مع الإخلاص لله تعالى، وهم مع ذلك في بعد عن الله ولكن من رحمته أنه إذا أخلص العبد في دعائه وتضرعه فمن رحمته أنه لا يرده، فافرح أيها المسلم بهذا الباب العظيم الذي فتح فادخل منه على ربك وعلق قلبك به ترى العجب من فضله وبركاته عليك.

المطلب الخامس: الخوف والطمع عند الدعاء.

وهذه حقيقة عظيمة ترتبط بهذه العبادة، قال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

"﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، طمعاً في قبولها، وخوفاً من ردها، لا دعاء عبد مدل على ربه قد أعجبتة نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاهٍ" (١).

وفي هذه الحال حين يقع الدعاء على هاتين الصفتين العظيمتين ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فلا بد أن يكون هناك توافق بين القلب واللسان حتى يحصل هذا العمل القلبي الخوف من الله والرجاء. ولهذا وصف الله الأنبياء ومن سار على طريقهم من عباده الصالحين بما يأتي:

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص ٢٩٢).

فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا

خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

قال السعدي رحمه الله في معنى الآيات: "لما ذكر تعالى الكافرين بآياته، وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين بها، ووصفهم، وما أعد لهم من الثواب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: إيماناً حقيقياً، من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ بآيات ربه فتليت عليهم آيات القرآن، وأتتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودُعوا إلى التذكر، سمعوها فقبلوها، وانقادوا، و ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين لها، خضوع ذكر لله، وفرح بمعرفته. ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا بقلوبهم، ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقوها بالقبول، والتسليم، وقابلوها بالانشراح والتسليم، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم.

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع جنوبهم، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو ألد عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارها. ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: جامعين بين الوصفين، خوفاً أن ترد أعمالهم، وطمعاً في قبولها، خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الرزق، قليلاً كان أو كثيراً ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه، ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه، النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة

الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي، خير مطلقاً، سواء وافق غنياً أو فقيراً، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت، بتفاوت النفع، فهذا عملهم. وأما جزاؤهم، فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي. أي: فلا يعلم أحد ﴿مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالى على لسان رسوله: "أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" فكما صلوا في الليل، ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص ٦٥٥).

المبحث الخامس: من فوائد وثمرات تحقيق عمل القلب في عبادة الذكر والدعاء، وفيه عدة مطالب.

المطلب الأول: الشعور بمعية الله لعبده.

ومعية الله هنا هي: المعية الخاصة التي تقتضي المحبة، والنصرة والتأييد، والمعونة والهداية، والحفظ والحماية، والقرب من عبده^(١)، فذكر الله ودعاؤه، فذلك تستجلب معية الله الخاصة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» الحديث^(٢).

وأما الدعاء فقد قال الله تعالى عن عبده الذي يدعوه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ويقول رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي»^(٣). وللشعور بهذه المعية الخاصة من الله تعالى لعبده المؤمن الذاكر له والداعي، يظهر أثرها على حياته في زيادة إقباله على كثرة الذكر والدعاء الخاشع مع حضور القلب، وذلك يجعله يذوق حلاوة العبادة ولذتها، وهذه بعض آثار المعية الخاصة على العبد المؤمن، وسيأتي مزيد تفصيل لبعضها:

١. توفيق الله وإعانتة له.

٢. رعاية الله وعنايته وحفظه لعبده.

٣. نصر الله وتأييده.

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١١ / ٢٥٠)، تفسير ابن كثير (٤ / ٦١٥)، المعية الإلهية في ضوء القرآن الكريم معانيها

ودلالاتها (٦٠) للدكتور ناصر الماجد، بحث منشور في مجلة الدراسات القرآنية العدد (١٠) ١٤٣٣ هـ.

(٢) أخرجه البخاري (٩ / ١٢١) ح (٧٤٠٥)، ومسلم (٤ / ٢٠٦١) ح (٢٦٧٥).

(٣) أخرجه مسلم (٤ / ٢٠٦٧) ح (٢٠٦٧).

٤. طمأنينة القلب، وانسراح الصدر، والثقة في وعد الله، وأوضح ما يكون عند الشدائد.

ودونك على سبيل المثال هذين الموقفين:

الموقف الأول: قال تعالى عن نبيه ﷺ وهو في الغار يطارده أعداؤه: ﴿إِلَّا تَصُورُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا! فَقَالَ: «مَا ظَنُّكَ - يَا أَبَا بَكْرٍ - بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا؟!»^(١).

وفي حديث الهجرة الطويل، في آخره قال النبي ﷺ لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلَمْ يَأْنِ لِلرَّحِيلِ؟»، قال: قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَارْتَحِلْنَا بَعْدَ مَا زَالَتِ الشَّمْسُ، وَاتَّبَعْنَا سُرَاقَةَ بَنِي مَالِكٍ، قَالَ: وَنَحْنُ فِي جِلْدٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَيْنَا، فَقَالَ: «لَا تَحْزَنْ؛ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَارْتَحَلْتُ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا، أَرَى فَقَالَ: إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ قَدْ دَعَوْتُمَا عَلِيَّ، فَادْعُوَا لِي، فَاللَّهُ لَكُمْ أَنْ أُرَدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ فَدَعَا اللَّهَ، فَنَجَا، فَارْجِعْ لَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا قَالَ: قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هَاهُنَا، فَلَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا رَدَّهُ، قَالَ: وَوَفَّى لَنَا^(٢).

الموقف الثاني: قال تعالى عن موسى الكَلْبِيلِ في ثقته بربه لما لحق بهم فرعون وجنوده، فصار العدو من خلفهم والبحر أمامهم، وليس معهم مراكب يجتازون بها البحر، فحصلت هزة قوية جعلت أصحاب القلوب التي ضعف تعلقها بالله تضطرب وتشعر بالهلاك، فقال الله عنهم وعن موسى الواثق بربه الذي تعلق قلبه به، وهو يشعر بقربه منه ومعيته له: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ

(١) أخرجه البخاري (٤/٥) ح (٣٦٥٣)، ومسلم (٤/١٨٥٤) ح (٢٣٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٤/٢٠١) ح (٣٦١٥)، ومسلم واللفظ له (٤/٢٣٠٩) ح (٢٠٠٩).

قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعَ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ
 أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾
 وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ وَأَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
 أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ [الشعراء: ٦١-٦٨].

٥. تثبيت الله للمؤمن عند لقاء العدو في ساحات الوغى:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].
 وهذا النصر والثبات مشروط بنصرتهم لدين الله، فإذا فعلوا ونصروا دينه، وقاموا به في أنفسهم،
 ودعوا إليه وجاهدوا أعداءه مخلصين لله، كان الله معهم بالنصر والتثبيت.
 قال السعدي رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: "هذا أمر منه تعالى للمؤمنين أن ينصروا الله
 بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك،
 نصرهم الله وثبت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسامهم
 على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد أن الذي ينصره بالأقوال
 والأفعال سينصره مولاة، ويسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره" (١).

بل ويسخر الله الملائكة تقف معه بالتثبيت والتأييد، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى
 الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾
 [الأنفال: ١٢]، وهذا ما حصل لأصحاب رسول الله ﷺ في بدر.

٦. الثبات على الحق إذا هبت أعاصير الفتن:

ومن أسباب الثبات على الحق شعوره بمعية الله له، ولذا تجد العبد المؤمن يجتهد في إصلاح قلبه،
 و يتفقد وينقيه من الشوائب حتى يثبتته الله على الحق إذا هبت أعاصير الفتن.

(١) تفسير السعدي (٧٨٥).

ومن آثار هذه المعية أنه يجد إعانة الله تجلي له طريق الحق فلا يلتبس عليه بطريق الباطل، وذلك بنور الوحي الذي يقذفه الله في قلبه، فيفتح الله له بنوره باب الحق، ويثبت الله عليه إلى أن يلقاه على الحق غير مغير ولا مبدل، قال تعالى عن آثار هذا النور: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥].

وقال تعالى في بيان هداية الوحيين: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].
والآيات في هذا المعنى كثيرة.

٧. القوة في الحق وعدم الخوف من غير الله:

وهذه ثمرة من ثمرات معية الله الخاصة لعبده، وهو أحوج ما يكون لذلك؛ لأنه يواجه شياطين الإنس والجن، الذين يسعون في الأرض فسادًا، فهو بحاجة ماسة لرعاية الله وعنايته به، فإذا حصل ذلك وجد أثره قوة في قلبه، ولا يكون في قلبه خوف من أحد غير الله، قال الله تعالى لنبيه وكليمه موسى ووزيره هارون لما أرسلهما دعاة إلى الله تعالى إلى فرعون الطاغية المتجبر المتكبر: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٦].

ولما يشعر العبد المؤمن بقرب ربه منه، فيقبل عليه، ويزداد خشوعاً، وذلاً وخضوعاً لربه، فيسارع ويسابق إلى مرضاته: قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وهذه من أعظم فوائد الذكر والدعاء التي تجعل العبد يلتذذ بخلوته بربه ويسعد بها ويجد فيها أنسه وراحة قلبه، ودونك هذه الآثار عن السلف في هذا المعنى التي أوردها ابن رجب رحمه الله في كتابه العظيم جامع العلوم والحكم:

"قال بكر المزني: مَنْ مثلك يا ابن آدم: حُلِّي بينك وبين المحراب والماء، كلما شئت، دخلت على الله عز وجل، ليس بينك وبينه ترجمان.

ومن وصل إلى استحضار هذا في حال ذكره لله وعبادته، استأنس بالله، واستوحش من خلقه ضرورة.

قال ثور بن يزيد: قرأت في بعض الكتب أن عيسى عليه السلام قال: يا معشر الحواريين، كلموا الله كثيراً، وكلموا الناس قليلاً، قالوا: كيف نكلم الله كثيراً؟ قال: اخلوا بمناجاته، اخلوا بدعائه. خرجه أبو نعيم.

وخرج أيضاً بإسناده عن رياح، قال: كان عندنا رجل يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة، حتى أقعد من رجله، فكان يصلي جالساً ألف ركعة، فإذا صلى العصر، احتبى، فاستقبل القبلة، ويقول: عجبْتُ للخلقة كيف أنست بسواك، بل عجبْتُ للخلقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك.

وقال أبو أسامة: دخلت على محمد بن النضر الحارثي، فرأيت أنه منقبض، فقلت: كأنك تكره أن تؤتى؟ قال: أجل، فقلت: أو ما تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني.

وقيل لمالك بن مغول وهو جالس في بيته وحده: ألا تستوحش؟ فقال: ويستوحش مع الله أحداً؟.

وكان حبيب أبو محمد يخلو في بيته، ويقول: من لم تَقَرَّ عينه بك، فلا قَرَّتْ عينه، ومن لم يَأْنَسْ بك، فلا أُنْسَ.

وقال غزوان: إِنِّي أَصَبْتُ راحة قلبي في مُجالسة مَنْ لديه حاجتي.

وقال مسلم بن يسار: ما تَلَذَّذَ المتلذِّذونَ بمثلِ الخُلوةِ بمناجاةِ الله عزَّ وجلَّ.

وقال مسلم العابد: لولا الجماعة، ما خرجتُ من بابي أبداً حتى أموت، وقال: ما يجدُ المطيعونَ لله لَذَّةً في الدُّنيا أحلى من الخُلوةِ بمناجاةِ سيِّدهم، ولا أحسب لهم في الآخرة مِنْ عظيمِ الثَّوابِ أَكْبَرَ في صدورهم وألَدَّ في قلوبهم مِنَ النَّظرِ إليه، ثم عُشي عليه.

وعن إبراهيم بن أدهم، قال: أعلى الدَّرجات أن تنقطعَ إلى ربِّك، وتستأنِسَ إليه بقلبك، وعقلك، وجميع جوارحك حتَّى لا ترجو إلَّا ربَّك، ولا تخاف إلَّا ذنبك، وترسخ محبته في قلبك حتَّى لا تُؤثِّرَ عليها شيئاً، فإذا كنت كذلك لم تُبالِ في بَرِّ كنت، أو في بحر، أو في سهل، أو في جبل، وكان شوقك إلى لقاء الحبيب شوقَ الظَّمآنِ إلى الماء البارد، وشوقَ الجائعِ إلى الطَّعامِ الطيب، ويكونُ ذكر الله عندك أحلى مِنَ العسل، وأحلى من الماء العذبِ الصَّافي عند العطشان في اليوم الصَّائف.

وقال معروف لرجلٍ: توكل على الله حتَّى يكونَ جليستك وأنيسك وموضعَ شكواك.

وقال ذو النون: مِنْ علامة المحبِّين لله أن لا يَأْنَسُوا بسواه، ولا يستوحشُوا معه، ثم قال: إذا سكنَ القلبُ حبُّ الله تعالى، أُنِسَ بالله، لأنَّ الله تعالى أجَلُّ في صُدُورِ العارفين أن يُحْبُّوا سواه" وإلى هنا انتهى المنقول من جامع العلوم والحكم^(١).

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٣٢-١٣٤ ت الأرنبوط).

المطلب الثاني: تحقيق التوحيد.

وقد سبق الكلام عن هذه الفائدة العظيمة، وأضيف هنا أن الإخلاص لله تعالى والمتابعة لهدي النبي في عبادة الذكر والدعاء يثمر صفاء العقيدة من شوائب الشرك في هذا المجال، وتحقيق التوحيد والحرص على حماية جنباه من كل وسيلة وذريعة تؤثر عليه وتكدر صفوه.

المطلب الثالث: ذكر الله لعبده.

وفي الذكر فائدة عظيمة جليلة المقدار، وهي أن الله بجلاله وعظمته وكماله ﷻ يتفضل على العبد الذي يذكره بذكره له، وهذا والله هو أعظم الشرف، وأي شرف يداني هذا الشرف؟ وأية عزة ورفعة تداني هذا الأمر؟ وقال الله تعالى في بيان ذلك: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وكما سبق في الحديث: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ... فَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» الحديث. وَعَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَنَّهُ قَالَ: " مَنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأٍ مِنَ النَّاسِ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَطْيَبَ " (١). ويقول ابن القيم رحمه الله عن هذه الفائدة العظيمة لذكر الله: "ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفاً" (٢).

وإذا أستشعر العبد هذا المعنى العظيم بقلبه زاد إقباله على كثرة ذكر الله؛ لأنه يريد الزيادة من هذا الشرف العظيم بذكر الله له في نفسه أو في الملاء الأعلى، وما يترتب عليه من خير عظيم جليل المقدار في الدنيا والآخرة.

(١) أخرجه أحمد (١٤ / ٢٩١ ط الرسالة) ح (٨٦٥٠)، وقال محقق المسند: "حديث صحيح".

(٢) الوابل الصيب - ط عطاءات العلم (١ / ٩٦).

المطلب الرابع: يطرد الشيطان ويقمعه، ويكون العبد في حصن حصين منه.

وهذه من أعظم فوائد الذكر، فإن الذاكر لله تعالى في حصن حصين من الشيطان، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ

لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

وقال ﷺ: «وَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْزَرَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْزِرُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ»^(١).

ويقول ابن القيم رحمه الله معلقاً على هذا الحديث: "فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لهجاً بذكره؛ فإنه لا يُحْزِرُ نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يَدْخُلُ عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يَرِصُّدُهُ، فإذا غفل وثَبَّ عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله وتصاغر وانقمع، حتى يكون كالوضع^(٢) وكالذباب، ولهذا سُمِّيَ الوسواس الخناس، أي: يوسوس في الصدور؛ فإذا ذُكِرَ الله تعالى خَنَسَ، أي: كف وانقبض.

وقال ابن عباس: "الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وَسَّوسَ، فإذا ذكر الله تعالى خَنَسَ" (٣) (٤).

(١) أخرجه أحمد (٢٨ / ٤٠٤ ط الرسالة) ح (١٧١٧٠)، والترمذي واللفظ له (١٤٨ / ٥) ت شاكر) ح (٢٨٦٣) وقال: "هذا حديث حسن صحيح غريب"، وأبو يعلى (٣ / ١٤٠) ت حسين أسد) ح (١٥٧١)، وابن خزيمة ط ٣ (٢ / ٩١٤) ح (١٨٩٥)، والحاكم - ط العلمية (١ / ٥٨٢) ح (١٥٣٤) وصححه وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١ / ٣٥٨) ح (٥٥٢)، وقال محقق المسند: "حديث صحيح".

(٢) طائر أصغر من العصفور. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥ / ١٩١) مادة (وضع).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٧ / ١٣٥) ت الحوت) رقم الأثر (٣٤٧٧٤)، الأحاديث المختارة (١٠ / ٣٦٧) رقمه (٣٩٣).

(٤) الوابل الصيب - ط عطاءات العلم (١ / ٨٣).

المطلب الخامس: خشوع القلب وطمأنينة التي تؤثر على الروح والجسد.

وللذكر أثر عظيم على طمأنينة القلب وخشوعه، وكذلك الدعاء له أثره الكبير على القلب والروح والجسد، وعلى حياة العبد في حصول المطالب وقضاء الحاجات، ودفع المضاعف والأخطار.

ودعاء الله على رأس الذكر لله تعالى، وقال تعالى في بيان أثر الذكر على القلب: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. دلت الآية على أثر ذكر الله على قلب المؤمن، فهو يأنس ويطيب ويسكن بذكر الله تعالى^(١). وهو يجلب لقلب الذاكر الفرح والسرور والراحة والطمأنينة والاستقرار واللذة والخشوع، ويزيل ما في القلوب من اضطراب وقلق وهم وحزن، ويبدل ذلك بالأنس والراحة والفرح، وتحقيق بالقلوب وحري بها ألا تطمئن لشيء سوى ذكره تبارك وتعالى^(٢). بل إن الذكر هو حياة القلب حقيقة، وهو قوت القلب والروح، فإذا فقد العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته، فلا حياة للقلب حقيقة إلا بذكر الله، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الذكر للقلب مثل الماء للسماك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء"^(٣).

ومن أسباب الطمأنينة والسكينة والراحة النفسية مجالس الذكر، كما في الحديث يقول ﷺ: «لَا يَفْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَعَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»^(٤).

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٦ / ٤٣٢).

(٢) فقه الأدعية والأذكار (١ / ١٧-١٨).

(٣) ينظر: الوابل الصيب - ط عطاءات العلم (١ / ٩٦).

(٤) أخرجه مسلم (٨ / ٧٢ ط التركية) ح (٢٧٠٠).

المطلب السادس: زيادة تعلق القلب بالله والدار الآخرة.

إن القلب المقبل على ذكر الله ودعائه، يزيد فيه تعلقه بربه والدار الآخرة، ولا يلتفت إلى الدنيا ولا تغره ولا تخدعه، بل هو يعرف الدنيا على حقيقتها، ويعرف الآخرة على حقيقتها، ويزن الدنيا بميزان العدل، فيسخرها من أجل مرضاة ربه والفوز بجنته، فلا تشغله وتلهيه الدنيا عن كثرة ذكر الله والإقبال على الدعاء مع حضور القلب، بل قلبه متعلق بربه والدار الآخرة، كما قال تعالى عنهم: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

بل جاء التحذير من ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

المطلب السابع: كثرة الذكر والدعاء أمان من النفاق.

قال ابن القيم رحمه الله عن هذه الفائدة العظيمة من فوائد كثرة الذكر: "أن كثرة ذكر الله عز وجل أمان من النفاق، فإن المنافقين قليلو الذكر لله عز وجل.

قال الله عز وجل في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال كعب: من أكثر ذكر الله عز وجل برئ من النفاق^(١).

ولهذا -والله أعلم- ختم الله تعالى سورة المنافقين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٩٨ ط الرشد) رقم الأثر (٥٧٢) وروي مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولا يصح.

ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١١/ ٢٠٣) ح (٥١٢٠).

الْخَسِرُونَ ﴿[المنافقون: ٩]﴾ فَإِنْ فِي ذَلِكَ تَحْذِيرًا مِنْ فِتْنَةِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ غَفَلُوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَوَقَعُوا فِي النِّفَاقِ.

وسئل بعض الصحابة رضي الله عنه عن الخوارج: أمانفون هم؟ قال: لا، المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً^(١).

فهذا من علامة النفاق: قلة ذكر الله تعالى، وكثرة ذكره أمان من النفاق، والله عز وجل أكرم من أن يتلى قلباً ذاكراً بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله تعالى"^(٢).
المطلب الثامن: من أسباب زيادة الإيمان.

وكثرة ذكر الله ودعاؤه من الأعمال الجليلة التي لها أثر كبير في زيادة إيمان العبد.
أجمع أئمة السلف على أن الإيمان يزيد وينقص^(٣)، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، ولا شك أن الذكر والدعاء من أعظم الطاعات التي بها يزيد الإيمان ولا سيما إذا اتفق القلب واللسان.
قال تعالى في بيان ذلك: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٥٣٥ ت الحوت) رقم (٣٧٧٦٣) أثر عن علي رضي الله عنه بلفظ مقارب.

(٢) الوابل الصيب - ط عطاءات العلم (١/ ١٩٥-١٩٦).

(٣) وممن ذكر الإجماع ابن بطّة في الإبانة الكبرى (٢/ ٨٣٢)، وابن عبد البر في التمهيد (٩/ ٢٣٨)، والبغوي في شرح

السنة (١/ ٣٨-٣٩)، وابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٦٧٢)، وابن كثير في تفسيره (١/ ١٦٥).

المطلب التاسع: الحفظ والحماية ورعاية الله له.

وإن كان هذا الأمر مرتبطاً بمعية الله الخاصة للذاكر والداعي التي سبق الكلام، إلا أن هناك أذكار وأدعية لها أثر كبير في حفظ الله وحمايته لعبده ورعايته له، وقد جعلها الله أسباباً لذلك، ومنها:

أذكار الصباح والمساء وبقية الأذكار المقيدة بزمان أو مكان.

الدعاء وأثره العظيم في جلب المنافع ودفع المكروه، ومن ذلك قوله ﷺ: «لَا يَرُدُّ الْقَضَاءُ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ»^(١)، وقال ﷺ: «وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرُ إِلَّا الدُّعَاءُ» الحديث^(٢). أدعية لها أثر في الحفظ ورعاية الله لعبده كدعاء السفر ونحوه.

المطلب العاشر: وجل القلب والخوف من الله.

وقال تعالى في أول صفات المؤمنين حقاً: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] الآيات.

وهذه صفة عظيمة من صفات المؤمنين حقاً أنهم إذا ذُكِرَ الله خافت قلوبهم من خشية الله وتعظيمه، وذلك حين يسمع العبد المؤمن بقلبه وإذنه ويذكر الله ويتذكره بقلبه ولسانه، فيوجب ذلك له خشية الله التي تجعله ينكف عن المحارم، فإن الخوف من الله من أعظم علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب^(٣).

(١) أخرجه الترمذي (٤ / ٤٤٨) ح (٢١٣٩) قال: "وهذا حديث حسن غريب"، والبخاري في مسنده (٦ /

٥٠١) ح (٢٥٤٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢ / ١٢٧١) ح (٧٦٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣٧ / ٩٥) ح (٢٢٤١٣)، وابن ماجه (١ / ٣٥) ح (٩٠)، وابن حبان (٣ / ١٥٣) ح (٨٧٢)،

والحاكم (١ / ٦٧٠) ح (١٨١٤) وصححه وأقره الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢ / ٢٧٩)

ح (١٦٣٨)، وقال محقق المسند (٣٧ / ٩٥) ح (٢٢٤١٣): "حسن لغيره".

(٣) ينظر: تفسير السعدي (٣١٥).

وقال تعالى في أول صفات المحبتين: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحِبِّينَ ۝٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴿[الحج: ٣٤-٣٥] الآية.

والمحبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده، ومن أول صفاته أنه إذا ذكر الله وجل قلبه بمعنى خاف من الله تعظيماً له، فترك لذلك المحرمات لحوفه ووجهه من الله وحده^(١).

المطلب الحادي عشر: الثقة بالله وحسن الظن به.

ومن أقبل على ذكر الله ودعائه بقلب حاضر قويت ثقته بالله، وتعلق قلبه به، وحسن ظنه بربه ﷺ، وقد وربط الله بين حسن الظن به والذكر والدعاء، فقال النبي ﷺ: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي.." الحديث.

ويقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي».

وقال تعالى عن قربته من عبده إذا دعاه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ومما يدل على أهمية حسن الظن بالله وعظيم الثقة به، أن يعزم العبد في دعائه ويلج على ربه ويعظم الرغبة مع حضور القلب واستشعار عظمة الله وقدرته على كل شيء وأنه لا يعجزه شيء ﷺ، قال ﷺ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهُ لَا مَكْرَهَ لَهُ»^(٢).

وقال ﷺ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ، وَلِيُعْظِمَ الرَّغْبَةَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»^(٣).

وهذه المعاني العظيمة التي يدل عليها الحديث، تقوي ثقة العبد بربه وحسن ظنه به، فيتعلق قلبه به، ولا يلتفت إلى أحد غيره في الرغبة والرغبة.

(١) ينظر: تفسير السعدي (٥٣٨).

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له (٨/ ٧٤ ط السلطانية) ح (٦٣٣٩)، ومسلم (٨/ ٦٤ ط التركية) ح (٢٦٧٩).

(٣) أخرجه مسلم (٨/ ٦٤ ط التركية) ح (٢٦٧٩).

المطلب الثاني عشر: الثبات في المعركة والنصر والتأييد^(١).

لقد جاءت النصوص الكثيرة في بيان أن كثرة الذكر والتضرع إلى الله؛ من أعظم أسباب النصر والتأييد والتمكين والثبات في المعارك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقال تعالى يصف دعاء المؤمنين في يوم بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

لقد كانت مشاعر المؤمنين قبل المعركة متوجهة إلى مالك النصر في لهفة واضطرار تطلب الغوث منه والنجدة، بنصر من عنده، فكان المدد بالملائكة والنصر من الله - سبحانه -، واستجابة الدعاء من الله، حتى لقد علم المؤمنون أنهم إنما نصروا بنصر الله، لا بعددهم ولا بسالتهم، ووصلوا إلى النصر بسهولة ودون عظيم خسارة هناك.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

أما الحال في حنين، فيصوره القرآن كذلك ويذكر حال الجماعة المؤمنة، فلا يذكر عنهم أنهم تضرعوا ولا دعوا، فقلت لديهم الضراعة، بل اضمحلت فيهم اضمحلالاً ظاهراً، بل بالعكس وقع في النفوس العجب بكثرة العدد والركون إليها والتعويل عليها، وهنا يأتي سياق القرآن بذكر ما استكن في قلوب المؤمنين وهم يسيرون إلى عدوهم فلا يذكر إقبالاً على دعاء الله منها، ولا طلب نصر منه، ولا استغاثة برهم كما كان الحال في بدر، بل يذكر ما استكن فيها من العجب بالكثرة والالتفات إليها أكثر من الالتفات إلى دعاء واهب النصر، حتى كانت الكلمة الرائجة في الجيش "لن نغلب اليوم عن قلة"^(٢)، فكانت الهزيمة الفاضحة في أول الأمر حتى أثبتت للمؤمنين أن الاعتماد يجب أن لا ينصرف إلى كثرة عدد ولا قوة مدد، ولا وفرة العناد

(١) ينظر: عوامل النصر والتمكين في دعوات المرسلين (ص ١٧١ - ١٧٥ بترقيم الشاملة آليا).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١ / ٣٩٠).

والآلة؛ وإنما الاعتماد إلى واهب النصر وحده، الذي نصرهم وهم أذلة في بدر حين قصدوه، ووجهوا القلوب متضرعة إليه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

وبعد أن تلقى أهل الإيمان درسًا فريدًا، وعلموا أن الكثرة ما أغنت ولا أجدت؛ شاء الله - سبحانه - أن يكمل لهم بقية الدرس ويريهم كيف ينزل النصر؟ وإذا أرادوه فمن أي باب يطرقونه؟ فهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يثبت في رجال معه، وينزل عن بغلته ويقول: "اللَّهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ" (١)، ويستنصر الله ويدعوه فينزل الله سكينته عليه وعلى المؤمنين، وينزل سبحانه جنودًا لم يروها، فيكون النصر المبين من الله، والذي صنعه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حين دعوه وتضرعوا إليه وثبتوا على ذلك يدعون ويتضرعون، وهكذا نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يثبت ويدعو الله ويستنزل نصره حتى كان النصر من الله الموصوف في الآية: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

إن الضراعة والابتغال إلى الله بإنزال النصر لم تكن شأن النبي صلى الله عليه وسلم في حين فقط، بل "كان صلى الله عليه وسلم إذا لقي عدوه، وقف ودعا واستنصر الله، وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله" (٢).

وهذا هو القرآن الكريم لا يكاد يذكر نصرًا وتمكينًا لدعوة الحق إلا ويذكر قبله أنه استنزل من خزائن مالك الملك بالضراعة والدعاء فهذا نبي الله نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام

(١) أخرجه مسلم (٥/ ١٦٨ ط التركية) ح (١٧٧٦).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد - ط عطاءات العلم (٣/ ١١٦).

وضارعه إلى ربه، فقال تعالى في شأنه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ ١٠ ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ ١١ ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ ١٢ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ ١٣ ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ١٤ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ [القمر: ١٠-١٦].

وقال تعالى في شأنه كذلك: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ١١٦ ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ ١١٧ ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١١٨ ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ١١٩ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ ١٢٠ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦-١٢١].

وقال تعالى في بيان أثر الدعاء والضراعة فيه: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ ١٢٦ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ١٢٧ ﴿فَعَاتِلُهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

والأدلة على إثبات ضراعة الأنبياء عليهم السلام في دعائهم ربه لطلب النصر كثيرة جداً.

المطلب الثالث عشر: صلاح الظاهر والباطن.

الإقبال على كثرة ذكر الله تعالى وكثرة دعائه يؤدي إلى صلاح باطن العبد؛ لما في الذكر والدعاء من الأثر العظيم على صلاح القلب، الذي يترتب عليه صلاح ظاهر العبد، كما في الحديث الذي سبق مراراً، قال ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

ومن علامات صلاح باطن العبد صلاح ظاهره للتلازم الكبير بين الظاهر والباطن، وكما يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه، وانتفاء الظاهر دليل

انتفاء الباطن" (١)، وعليه فكثر ذكر الله على المنهج الذي يحبه الله كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ﷺ علامة صادقة على صلاح القلب وسلامته، وقال ابن القيم رحمه الله: "ومن علامات صحة القلب: أن لا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره؛ إلا بمن يَدُلُّه عليه، ويُذَكِّرُه به، ويذاكره بهذا الأمر" (٢)، وذكر الله تعالى في كتابه، حال عباده المؤمنين أولي الأبواب الذين يذكرون الله على كل أحوالهم، وهذا يدل على سلامة قلوبهم وصلاحها، فقال تعالى عنهم في بيان ذلك: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال سبحانه في أول صفة للمؤمنين حقاً تدل على ارتباط الظاهر بالباطن: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] الآيات. وقال تعالى في أول صفات المختبين: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٥] الآية.

(١) الإيمان الأوسط - ط ابن الجوزي (ص ٤٤٦).

(٢) إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان (١ / ١٢٠ ط عطاءات العلم).

المطلب الرابع عشر: الثبات حتى الممات وحسن الخاتمة.

ومن أعظم أسباب الثبات الإكثار من ذكر الله تعالى ومنه الدعاء والتضرع، فقال تعالى في بيان ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فرتب سبحانه الثبات عند مواجهة العدو على كثرة ذكر الله.

والثبات من الله عزوجل كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]

قال السعدي رحمه الله: "يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين، أي: الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها، فيثبتهم الله في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها.

وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح، إذا قيل للميت: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي. ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ﴾

الظالمين ﴿عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم﴾^(١). وقال رحمه الله في موطن آخر: "وأصل الثبات: ثبات القلب وصبره، ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فأهل الإيمان أهدى الناس قلوباً، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان"^(٢). ومما يبرز أهمية توفيق الله للعبد للثبات على الدين الحق إلى الممات والتوفيق لحسن الخاتمة تكرار الدعاء العظيم في كل ركعة من الصلاة لطلب الهداية من الله والثبات عليها، قال تعالى:

(١) تفسير السعدي (٤٢٥).

(٢) تفسير السعدي (٨٦٧).

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

وإليك بعض الفوائد العظيمة حول الدعاء الذي ورد في آخر سورة الفاتحة:

إذا رسخ في قلب العبد أهمية هذا الدعاء وعظيم الحاجة إليه ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾، وأنه

من أعظم الأدعية وأهمها على الإطلاق، حينها يقبل القلب عليه مستشعراً لفقره وحاجته لربه

في أن يحقق له مطلبه ويحيب دعوته، والتي متى ما أُجيبَت نال سعادة الدارين، ولتكرار هذه

الدعوة في كل ركعة من الصلاة سر عظيم، أسأل الله أن يوفقني للإشارة إليه في الفقرة الآتية.

فينبغي على المسلم أن يشعر بعظمة هذا الدعاء الذي يردده في كل يوم فقط في الفرائض سبع

عشرة مرة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾، وهذا يشعر بعظيم أهمية في حياة المسلم؛ بل

هو من أعظم ما يدعو به في نهاره وليلته؛ لأن هذا الدعاء يتضمن سؤال الله الهداية إلى الصراط

المستقيم، وكذلك سؤاله الثبات على الهداية إلى أن يلقي ربه، ويختتم له بالحسنى.

والعبد المؤمن في هذه الدنيا على خطر عظيم، فالقلب كثير التقلب، وشياطين الأنس والجن

متربصة به تنتظر زلته عن الصراط ليستثمروها، وفي المقابل نفس امارة بالسوء، والصراط المستقيم

على صعوبته، بجواره طرق مزينة مفروشة بالشهوات المحرمة المحبة للنفوس، فالخطر عظيم، وفتن

الشبهات والشهوات تعرض على القلوب في كل وقت، فهنا يظهر أهمية وعظمة هذا الدعاء

وجاجة الماسة إلى الدعاء به في كل ركعة، والله الموفق والمعين.

قال تعالى عن خطر الشياطين وتعاونهم على إضلال بني آدم: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ

يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ

فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ١١٢﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ الأنعام: ١١٢ - ١١٣.

وذكر الله في كتابه دعاء المؤمنين الراسخين في العلم فقال ﷺ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ

إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ آل عمران: ٨.

وهذا يدل على أن القلب كثير الزيغ إذا لم يثبتته الله، وجاء إكثار النبي ﷺ من الدعاء بتثبيت القلوب على الدين؛ ليدل على كثرة تقلبها بسبب كثرة أمراضها، وهذا يجعل المؤمن مهتمًا بالإكثار من هذا الدعاء متفهمًا لحاجته له؛ لخوفه على قلبه من التقلب، فعن أنس رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟! قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»^(١).

وَقَالَ الْمُقَدَّادُ بْنُ الْأَسْوَدِ: لَا أَقُولُ فِي رَجُلٍ خَيْرًا وَلَا شَرًّا حَتَّى أَنْظُرَ مَا يُخْتَمُ لَهُ، يَغْنِي بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِيلَ: وَمَا سَمِعْتَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلَابًا مِنَ الْقَدْرِ إِذَا اجْتَمَعَتْ غُلْيَا"^(٢).

وكل ما سبق يدل دلالة قوية على عظيم أهمية هذا الدعاء ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿الذي نكره في كل ركعة، ولكن حجب الذنوب الكثيفة على القلوب أفقدت القلب الشعور بحاجته الشديدة والماسة جداً لتكرار هذا الدعاء في كل ركعة، وإلى الله المشتكى.

(١) أخرجه أحمد ط الرسالة (١٩ / ١٦٠) ح (١٢١٠٧)، والترمذي (٤ / ٤٤٨) ح (٢١٤٠) وقال الترمذي: "هذا حديث حسن"، وابن ماجه (٢ / ١٢٦٠) ح (٣٨٣٤)، حكم الألباني بصحته في مشكاة المصابيح (١ / ٣٧) ح (١٠٢)، قال محقق المسند (١٩ / ١٦٠): "إسناده قوي على شرط مسلم".

(٢) أخرجه أحمد (٣٩ / ٢٣٩) ح (٢٣٨١٦)، والحاكم (٢ / ٣١٧) ح (٣١٤٢) وصححه ووافقه الذهبي، وقال محقق المسند (٣٩ / ٢٣٩): "حديث حسن"، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤ / ٣٧٤) ح (١٧٧٢).

وكذلك يحضر قلبه عند التأمين، فهو كلمة بمعنى: "اللهم استجب" أي: استجب هذا الدعاء، وليتذكر وهو يقول: "آمين" حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمَّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله عن عظيم أثر هذا الدعاء: "والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين، كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة مع علمهم بحاجتهم وفاقتههم إلى الله دائماً في أن يهديهم الصراط المستقيم، فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين.

قال سهل بن عبد الله التستري: ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار^(٢)، وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل وهذا حقيقة قول من يقول: ثبتنا واهدنا لزوم الصراط. وقول من قال: زدنا هدى يتناول ما تقدم؛ لكن هذا كله هدى منه في المستقبل إلى الصراط المستقيم؛ فإن العمل في المستقبل بالعلم لم يحصل بعد ولا يكون مهتدياً حتى يعمل في المستقبل بالعلم، وقد لا يحصل العلم في المستقبل بل يزول عن القلب، وإن حصل فقد لا يحصل العمل فالناس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء؛ ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه، وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة والله أعلم^(٣).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره عن هذا الدعاء العظيم: "ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أُرشدته الله إلى ذلك؛ فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله، فأرشدته تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمدّه بالمعونة والثبات والتوفيق"^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٨ / ٨٥) ح (٦٤٠٢)، ومسلم واللفظ له (٣٠٧ / ١) ح (٤١٠).

(٢) ينظر: الزهد والرقائق للخطيب البغدادي (ص ١٢٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠ / ١٠٨ - ١٠٩).

(٤) تفسير ابن كثير ت سلامة (١ / ١٣٩).

وقال السعدي رحمه الله: "فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك"^(١). ولهذا لا يحسن بالمسلم أن يغفل عن ذلك، بسبب تكرار هذا الدعاء في كل ركعة من صلاته، بل ينبغي أن يكون حاضر القلب، يجاهد نفسه على ذلك؛ ليتحقق أثر هذا الدعاء العظيم عليه ثباتاً على الحق إلى أن يلق الله، وصبراً على ما يلقاه في طريقه إلى الله.

المطلب الخامس عشر: الشعور القلبي بالقيمة العظيمة لعبادة الذكر والدعاء، ومن ذلك:

وللذكر والدعاء الكثير من الفوائد، ذكرت بعضها فيما سبق، وأضيف هنا كذلك فوائد أخرى، ويصعب الإحاطة بهذه الفوائد لكثرتها جداً، وهناك بعض الكتب المتعلقة بالذكر والدعاء توسعت في ذلك، ولعل من أبرزها: الوابل الصيب للإمام ابن القيم رحمه الله، فقد في الذكر أكثر من سبعين فائدة.

ولكني أقصد هنا أن يستشعر المؤمن بقلبه هذه الفوائد ليزداد أقبالاً على الذكر والدعاء، والله الموفق والمعين، ودونك شيئاً من ذلك:

١- خير من الدنيا وما فيها وما عليها.

وقد ورد ذلك في الحديث قيمة الكلمات الأربع ووزنها عند النبي صلى الله عليه وسلم، وأنها أحب إليه من الدنيا وما فيها، وما عليها، حيث يقول: يقول ﷺ: «لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»^(٢).

(١) تفسير السعدي (٣٩).

(٢) أخرجه مسلم (٨/ ٧٠ ط التركية) ح (٢٦٩٥).

٢- خير الأعمال.

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَرْكَأهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى»^(١).

٣- الدعاء هو العبادة.

عَنْ التُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]^(٢).

(١) أخرجه أحمد (٣٦ / ٣٣ ط الرسالة) ح (٢١٧٠٢)، والترمذي (٥ / ٤٥٩ ت شاكر) ح (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٢ / ١٢٤٥ ت عبد الباقي) ح (٣٧٩٠)، والحاكم (١ / ٦٧٣) ح (١٨٢٥)، وصححه وأقره الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٧٣): "رواه أحمد، وإسناده حسن"، وصححه الألباني في تخريجه للترمذي رقم ح (٣٣٧٧)، وقال محقق المسند: "إسناده صحيح".

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠ / ٣٤٠) ح (١٨٣٩١)، وأبو داود (٢ / ٧٦) ح (١٤٧٩)، والترمذي (٥ / ٣٧٥) ح (٣٢٤٧) وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وابن ماجه (٢ / ١٢٥٨) ح (٣٨٢٨)، والحاكم (١ / ٦٦٧) ح (١٨٠٢) وصححه، وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١ / ٦٤١) ح (٣٤٠٧)، وقال محقق المسند (٣٠ / ٣٤٠) ح (١٨٣٩١): "إسناده صحيح".

٤- أكرم شيء على الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ»^(١).

٥- من أعظم الأعمال التي تنجي من عذاب الله.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا قَطُّ أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ " ^(٢).

٦- لا يرد القدر إلا الدعاء.

وَقَالَ ﷺ: «لَا يَرُدُّ الْقَضَاءُ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ»^(٣)، وَقَالَ ﷺ: «وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ» الحديث^(٤).

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٤ / ٣٦٠) ح (٨٧٤٨)، والترمذي (٥ / ٤٥٥) ح (٣٣٧٠) وقال: «هَذَا حَدِيثٌ

غَرِيبٌ..»، وابن ماجه (٢ / ١٢٥٨) ح (٣٨٢٩)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢ /

٢٧٦) ح (١٦٢٩)، وكذلك شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لسنن ابن ماجه (٥ / ٦) ح (٣٨٢٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦ / ٣٩٦ ط الرسالة) ح (٢٢٠٧٩) عن معاذ رضي الله عنه مرفوعاً، وضعف إسناده محقق المسند لانقطاعه، والطبراني في المعجم الأوسط (٣ / ٥) ح (٢٢٩٦) عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً، وقال عنه المنذري في الترغيب والترهيب للمنذري - ت عمارة (٢ / ٣٩٦) ح (١٣): "رواه الطبراني في الصغير والأوسط، ورجاهما رجال الصحيح"، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٧٤) ح (١٦٧٤٩): "رواه الطبراني في الصغير والأوسط، ورجاهما رجال الصحيح"، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢ / ٢٠٥) ح (١٤٩٦): "حسن لغيره".

وأخرجه موقوفاً على معاذ رضي الله عنه الترمذي (٥ / ٤٥٩ ت شاكر) ح (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٢ / ١٢٤٥) ت عبد الباقي) ح (٣٧٩٠)، والحاكم (١ / ٦٧٣) ح (١٨٢٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٤ / ٤٤٨) ح (٢١٣٩) قال: "وهذا حديث حسن غريب"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢ / ١٢٧١) ح (٧٦٨٧).

(٤) أخرجه أحمد (٣٧ / ٩٥) ح (٢٢٤١٣)، وابن ماجه (١ / ٣٥) ح (٩٠)، وابن حبان (٣ / ١٥٣) ح (٨٧٢)، والحاكم في المستدرک (١ / ٦٧٠) ح (١٨١٤) وصححه وأقره الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢ / ٢٧٩) ح (١٦٣٨)، وقال محقق المسند (٣٧ / ٩٥) ح (٢٢٤١٣): "حسن لغيره".

٧- غراس الجنة.

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَفَرِئُ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَخْبِرُهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيَعَانُ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ" (١).

وعن أبي أيوب الأنصاري: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ مَرَّ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: " مَنْ مَعَكَ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا مُحَمَّدٌ، فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: مُرْ أُمَّتَكَ فَلْيُكْثِرُوا مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ، فَإِنَّ تُرْبَتَهَا طَيِّبَةٌ، وَأَرْضُهَا وَاسِعَةٌ قَالَ: وَمَا غِرَاسُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ" (٢).

وعَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ" (٣).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَغْرِسُ غَرْسًا، فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا الَّذِي تَغْرِسُ؟» قُلْتُ: غِرَاسًا لِي، قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى غِرَاسٍ خَيْرٍ لَكَ مِنْ هَذَا؟»

(١) أخرجه الترمذي (٥ / ٥١٠ ت شاكر) ح (٣٤٦٢) وقال: " هذا حديث حسن غريب"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩١٦/٢) ح (٥١٥٢)، والطبراني في الأوسط (٤ / ٢٧٠) ح (٤١٧٠)، وفي المعجم الصغير (١ / ٣٢٦) ح (٥٣٩) وزاد فيه: " وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ".

(٢) أخرجه أحمد (٣٨ / ٥٣٣ ط الرسالة) ح (٢٣٥٥٢)، وابن حبان (٣ / ١٠٣) ح (٨٢١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٩٧) ح (١٦٨٩٨) وقال: " ورجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وهو ثقة لم يتكلم فيه أحد، ووثقه ابن حبان"، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار (١ / ١٠٣)، وقال الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٢ / ٢٠٥) ح (٨١٨): "صحيح لغيره".

(٣) أخرجه الترمذي (٥ / ٥١١ ت شاكر) ح (٣٤٦٤) وقال: "حسن صحيح غريب"، والبخاري (٦ / ٤٣٦) ح (٢٤٦٨)، وأبو يعلى (٤ / ١٦٥ ت حسين أسد) ح (٢٢٣٣)، والطبراني في الصغير (١ / ١٨١) ح (٢٨٧)، والحاكم - ط العلمية (١ / ٦٨٠) ح (١٨٤٧) وصححه وأقره الذهبي، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار (١ / ١٠٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٩٤) ح (١٦٨٧٥): "رواه البزار وإسناده جيد"، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢ / ٢٢٧) ح (١٥٣٩): "صحيح لغيره".

قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: " قُلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، يُغْرَسُ لَكَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ" (١).

٨- به يحصل العبد على صلاة الله عليه وملائكته.

وقال ابن القيم رحمه الله: " ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح، وفاز كل الفوز، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣].

فهذه الصلاة منه تبارك وتعالى ومن ملائكته إنما هي على الذاكرين له كثيراً، وهذه الصلاة منه ومن ملائكته هي سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله تبارك وتعالى وملائكته وأخرجوا من الظلمات إلى النور فأى خير لم يحصل لهم بذلك؟! وأي شر لم يندفع عنهم؟! فيا حسرة الغافلين عن ربهما ماذا حرموا من خيره وفضله!، وبالله التوفيق" (٢).

٩- مجالسه مجالس الملائكة.

وكما في الحديث الذي سبق: يقول ﷺ: « لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَعَشِيَّتُهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ ». وقال ﷺ: « إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلًا يَتَتَبَعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّتْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَأُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا، وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ قَالَ: فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: مِنْ أَيْنَ

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٥١ ت عبد الباقي) ح (٣٨٠٧)، والحاكم - ط العلمية (١/ ٦٩٣) ح (١٨٨٧) وصححه وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥١٠) ح (٢٦١٣).

(٢) الوابل الصيب - ط عطاءات العلم (١/ ١٧٤).

جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الْأَرْضِ يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيُهَلِّلُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيَسْأَلُونَكَ قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتِكَ قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: لَا أَيْ رَبِّ قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ قَالَ: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: لَا قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا وَأَجْرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فَلَانُ عَبْدٌ خَطَاءٌ إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»^(١).

(١) أخرجه مسلم (٨ / ٦٨ ط التركية) ح (٢٦٨٩).

المبحث السادس: من أسباب الانحراف في عبادة الذكر والدعاء، وفيه عدة مطالب^(١).

المطلب الأول: الجهل والإعراض عن الكتاب والسنة.

و الجهل أعظم بيئة تنشر فيها الانحرافات في قضايا العبادة كالذكر والدعاء، فإذا قل العلم الشرعي المبني على الدليل من الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح، وقل العلماء الحاملون له العاملون به القائمون بواجب النصيحة للأمة، فحينئذ تنفشي البدع والمحدثات، وينحرف الناس عن المنهج النبوي والصراط المستقيم الذي رسمه النبي ﷺ لأمته وتركها عليها إلى طرق الضلال والبدع التي حذر منها أمته أعظم تحذير وأنذر وأعذر أمام ربه في حجة الوداع، ودونك النصوص الدالة على ذلك من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ

عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقد فسر النبي ﷺ هذه الآية، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا»، قَالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ السُّبُلُ، لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ " (٢).

(١) ينظر في هذه الأسباب الكتاب القيم الماتع وهو رسالة علمية متينة رصينة : الدعاء ومنزلته في العقيدة الإسلامية (١/٤٣٨-٤٧٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٧/٤٣٦) ح (٤٤٣٧)، وابن حبان في صحيحه (١/١٨٠) ح (٦)، والحاكم في المستدرک (٢/٢٦١) ح (٢٩٣٨) وصححه ووافقه الذهبي، وقال في مجمع الزوائد (٧/٢٢) ح (١١٠٠٥): "رواه أحمد والبخاري، وفيه عاصم بن مبدلة، وهو ثقة، وفيه ضعف"، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (١/٥٨) ح (١٦٦)، وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند (٧/٤٣٦) ح (٤٤٣٧): "إسناده حسن من أجل عاصم، وهو ابن أبي النجود،

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا

يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿فَأَسْتَمِمْسِكُ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

هذه الآيات تدل على وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة، فإنه لا نجاة للأمة من الفتن والبدع والمحدثات إلا بالاعتصام بالكتاب والسنة والتمسك بهما، والتحاكم إليهما في صغير الأمر وكبيره، مع التسليم والانقياد التام لأمر الله ولأمر رسوله دون أدنى ضيق في القلب أو حرج. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابُ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. الحديث^(١).

وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي بكر - وهو ابن عياش - فمن رجال البخاري، وأخرج له مسلم في المقدمة.

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٣٨ ط التركية) ح (١٢١٨).

وعن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه قَالَ: حَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أُبَشِّرُوا وَأُبَشِّرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ، طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضَلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا»^(١).
وقال ﷺ في خطبة حجة الوداع: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضَلُّوا أَبَدًا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ» الحديث^(٢).

وجاءت النصوص في التحذير من مخالفة أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ، فقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].
ونقل ابن بطة عن الإمام أحمد رحمه الله قوله: "نظرت في المصحف فوجدت فيه طاعة رسول الله ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعًا"، ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وجعل يكررها، ويقول: "وما الفتنة؟ الشرك، لعله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ فيهلكه"، وجعل يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]^(٣).

-
- (١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٣٢٩) ح (١٢٢)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٤١) ح (٦٢): "رواه الطبراني في الكبير بإسناد جيد"، وقال في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد في كتاب العلم، باب في العمل بالكتاب والسنة (١/ ١٦٩) ح (٧٧٩): "رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح"، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٣٣٠) ح (٧١٣).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب العلم (١/ ١٧١) ح (٣١٨) وصححه ووافقه الذهبي، وقال الذهبي: "وله أصل في الصحيح"، والبيهقي في السنن الكبرى في كتاب آداب القاضي (١٠/ ١٩٤) ح (٢٠٣٣٦)، والمنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٤١) ح (٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٢٤) ح (٤٠).
(٣) الإبانة الكبرى لابن بطة (١/ ٢٦١).

فإذا اعتصمت الأمة بكتاب الله وسنة النبي ﷺ بفهم الصالح وقام العلماء بنشر العلم ضعف الجهل وانتشرت السنة، وقمعت البدعة وعبد المسلمون ربهم كما يحب ويرضى، فالتزم الناس بالكتاب والسنة في جميع العبادات، ومنها عبادة الذكر والدعاء، ولكن لما بعدت الأمة عن المنبع الصافي وذهبت إلى المنابع المتكدرة، وقل فيها دعاة العلم الشرعي المبني على الكتاب والسنة، وسعى دعاة الضلال في الانحراف بها عن الصراط المستقيم إلى طرق الضلال والبدع، فاخترعوا لها أنواعاً من الأذكار والأدعية والاوراد البدعية حتى تكدر مشربها وسرت فيها تلك الخرافات وانتشرت انتشار النار في الهشيم، وإن القلب ليحزن والعين لتدمع على بعض أمة محمد صلى الله عليه وسلم كيف تركوا الطريق الواضح البين الذي رسمه لها النبي صلى الله عليه وسلم، وعن العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةٌ مُودِعٌ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: " قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنْفِ حَيْثُمَا انْقَادَ انْقَادًا"^(١).

ومن أسباب انتشار هذه الأذكار البدعية والأدعية المحدثه أن علماء السوء تبنا ذلك وزينوا للعوام الاستمساك بهذه الأدعية المحدثه والأذكار البدعية واستمات علماء السوء في ترغيب العوام في هذه الأذكار البدعية ورهبوهم من تركها وبسبب جهل الناس وثقتهم في

(١) أخرجه أحمد (٢٨ / ٣٦٧ ط الرسالة) ح (١٧١٤٢)، وابن ماجه (١ / ١٦ ت عبد الباقي) ح (٤٣)، والحاكم - ط العلمية (١ / ١٧٥) ح (٣٣١) وصححه وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١ / ١٣٢) ح (٥٩)، وصححه الأرناؤوط في تحقيقه لسنن ابن ماجه (١ / ٢٩ ت الأرناؤوط) ح (٤٣).

علماء السوء انتشر هذا الضلال في كثير من بلاد الإسلام، وهذا السبب يحتاج إلى أفراد له وبسط الكلام فيه، وسيأتي إن شاء الله تعالى في مطلب قادم.

وهذه بعض الأمثلة على الأذكار البدعية التي انتشرت عند الطرق الصوفية وروجوا لها بين الناس حتى أقبلوا عليها كأنها سنة ثابتة عن النبي ﷺ، وذلك بسبب داء الجهل وعلماء السوء، بل فضلوها على كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" التي جاءت النصوص في الكتاب والسنة في فضلها. ومن أمثلة الأذكار البدعية، كما في ذكرهم لله بالاسم المفرد (الله الله الله) أو بالضمير (هو هو هو) مع التكرار.

وأود هنا أن أنقل تلخيص الشيخ عبد الرزاق البدر لكلام شيخ الإسلام رحمه الله في الرد على هذه البدعة حيث يقول حفظه الله: "وقد فند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله دعاوى هؤلاء في ذكرهم المحدث هذا، وبين فساد ما قد يتشبثون به لنصرتهم وتقريره، قال رحمه الله: "وربما ذكر بعض المصنفين في الطريق تعظيم ذلك واستدل عليه تارة بوجد، وتارة برأي، وتارة بنقل مكذوب، كما يروي بعضهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لقن علي بن أبي طالب أن يقول: "الله، الله، الله، فقالها النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ثم أمر علياً فقالها ثلاثاً"، وهذا حديث موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث، وإنما كان تلقين النبي صلى الله عليه وسلم للذكر المأثور عنه، ورأس الذكر لا إله إلا الله، وهي الكلمة التي عرضها على عمه أبي طالب حين الموت، وقال: "يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله"، وقال: "إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد روحه لها روحاً"، وقال: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة"، وقال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دمائهم وأمواهم إلا بحقها وحسابهم على الله"، والأحاديث كثيرة في هذا المعنى، ثم قال: فأما ذكر الاسم المفرد فلم يشرع بحال، وليس في الأدلة الشرعية ما يدل على استحبابه، وأما ما يتوهمه طائفة من غالطي المتعبدین في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ

ذَرَهُمْ ﴿[الأنعام: ٩١]، ويتوهمون أن المراد قول هذا الاسم، فخطأ واضح، ولو تدبروا ما قبل هذا تبين مراد الآية، فإنه سبحانه قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١]، أي قل الله أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، فهذا كلام تام، وجملة اسمية مركبة من مبتدأ وخبر، حذف الخبر منها لدلالة السؤال على الجواب، وهذا قياس مطرد في مثل هذا في كلام العرب ...

وذكر أمثلة على ذلك، إلى أن قال رحمه الله: وقد ظهر بالأدلة الشرعية أنه غير مستحب . أي الذكر بالاسم المفرد من غير كلام تام . وكذلك بالأدلة العقلية الذوقية، فإن الاسم وحده لا يعطي إيماناً ولا كفراً، ولا هدى ولا ضلالاً، ولا علماً ولا جهلاً ...

إلى أن قال: ولهذا اتفق أهل العلم بلغة العرب وسائر اللغات على أن الاسم وحده لا يحسن السكوت عليه، ولا هو جملة تامة ولا كلاماً مفيداً ولو كرر الإنسان اسم الله ألف ألف مرة لم يصر بذلك مؤمناً، ولم يستحق ثواب الله ولا جنته، فإن الكفار من جميع الأديان يذكرون الاسم مفرداً، سواء أقرؤا به وبوحدانيته أم لا، حتى إنه لما أمرنا بذكر اسمه كقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، ونحو ذلك كان ذكر اسمه بكلام تام مثل أن يقول: باسم الله، أو يقول: سبحان ربي الأعلى، وسبحان ربي العظيم، ونحو ذلك، ولم يشرع ذكر الاسم المجرد قط، ولا يحصل بذلك امتثال أمر، ولا حل صيد ولا ذبيحة ولا غير ذلك.

إلى أن قال رحمه الله: فثبت بما ذكرناه أن ذكر الاسم المجرد ليس مستحباً، فضلاً عن أن يكون هو ذكر الخاصة، وأبعد من ذلك ذكر الاسم المضمّر، وهو: هو، فإن هذا بنفسه لا يدل على معين، وإنما هو بحسب ما يفسره من مذكور أو معلوم فيبقى معناه بحسب قصد المتكلم ونيته^(١).

وقال في موضع آخر: "والذكر بالاسم المضمّر المفرد أبعد من السنة وأدخل في البدعة وأقرب إلى إضلال الشيطان ...

إلى أن قال: والمقصود هنا أن المشروع في ذكر الله سبحانه هو ذكره بجملة تامة، وهو المسمى بالكلام، والواحد منه بالكلمة، وهو الذي ينفع القلوب، ويحصل به الثواب والأجر، والقرب إلى الله ومعرفته ومحبته وخشيته، وغير ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية، وأما الاختصار على الاسم المفرد مظهراً أو مضمراً فلا أصل له، فضلاً عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين، بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات، وذريعة إلى تصورات فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتحاد ... ، وجماع الدين أصلاً: أن لا نعبد إلا الله ولا نعبد إلا بما شرع لا نعبده بالبدع"^(٢). اهـ كلامه رحمه الله، وفيه من التحقيق والبيان ما لا يدع مجالاً للتردد في الأمر، والحق أبلج.

إن تكالب هؤلاء على هذه الأذكار المحدثّة، التي لا أصل لها في دين الله، ولا أساس لها من شرعه، وتركهم في مقابل ذلك السنن الصحيحة، والأذكار الشرعية، ليشير في المسلم تساؤلات وتساؤلات، ما الذي حمل هؤلاء على الانصراف عن هدي النبي صلى الله عليه وسلم والرغبة عن سنته، إلى أمور ما أنزل الله بها من سلطان، وأذكار ليس عليها في الشرع أي دليل ولا برهان، ثم مع هذا يعظمونها غاية التعظيم ويفخمون شأنها، ويقفلون من شأن الأدعية النبوية

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٥٧-٥٦٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٢٧-١٣٤).

والأذكار الشرعية التي كان يقولها سيد الخلق أجمعين، وخير الأنبياء والمرسلين، وإمام وقادة
المخبتين الذاكرين، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين^(١).

والأمثلة على الأذكار الصوفية المبتدعة كثيرة ونكتفي بما سبق.

المطلب الثاني: من أسباب تعلق القلب بغير الله.

ومن الأسباب العظيمة المؤدية إلى الانحراف في عبادة الذكر والدعاء، تعلق القلوب بغير الله،
وهذا التعلق له أسباب، منها:

**الأول: عدم تقدير الله حق قدره، ونقل حقه تعالى - من التقدير له تعالى حق التقدير -
لغيره.**

وهذا هو السر العظيم وأعظم الأسباب الذي إذا اختل سقط الإنسان في الضلال العظيم،
واحتوشته شياطين الإنس والجن، وقادوه إلى الضلال وهو يحسب أنه على الحق، لعدم تقديره
الله حق التقدير يقول الله تعالى عنهم: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ وَإِنَّ
الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ
شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ
إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].
وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ
خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

(١) فقه الأدعية والأذكار (١/ ١٩٧-٢٠٠).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿هود: ٦٦﴾.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿الأنعام: ١٨﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ

أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿فاطر: ٤١﴾.

وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ

مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ

لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿غافر: ١٥ - ١٦﴾.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَوْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ

عَلَى إصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالْثَرَى عَلَى إصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إصْبَعٍ، ثُمَّ

يَهْزُؤُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ

الْحَبْرُ، تَصْدِيقًا لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

[الزمر: ٦٧] ^(١).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَقْبِضُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي

السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟ " ^(٢).

(١) أخرجه البخاري (١٢٦ / ٦) ح (٤٨١١)، ومسلم واللفظ له (٢١٤٧ / ٤) ح (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٤٨ / ٤) ح (٢٧٨٧).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَطْوِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهَا بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَتَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَتَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَتَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَتَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟" (١).

وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِقْسَمٍ، أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ كَيْفَ يَخْكِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يَأْخُذُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللَّهُ - وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا - أَنَا الْمَلِكُ " حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمَنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟" (٢).

ومن الأدلة على عظمة الله، عظمة مخلوقاته، ومن ذلك قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٦].

وقال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ» (٣).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحُلُقَةِ" (٤).

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٤٨) ح (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٤٨) ح (٢٧٨٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٣٢) ح (٤٧٢٧)، وقال ابن كثير في تفسيره (٨/ ٢١٢): "وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات"، وقال الذهبي في العلو للعلي الغفاري (٩٧) ح (٢٣٤): "إسناده صحيح"، وفي فتح الباري لابن حجر (٨/ ٦٦٥): "إسناده على شرط الصحيح"، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٨٢) ح (١٥١).

(٤) أخرجه محمد ابن أبي شيبة في العرش (٤٣٢) ح (٥٨)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٧٦) ح (٣٦١)، وابن بطه في الإبانة الكبرى (٧/ ١٨١) ح (١٣٦)، وفي فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٤١١): "وفي حديث أبي ذر الطويل الذي

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي يَدِ اللَّهِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»^(١).

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "فالسَّمَوَاتُ السَّبْعُ والأَرْضِينَ السَّبْعُ في كفه تعالى كخردلة في كف أحدكم، يعني: السَّمَوَاتُ السَّبْعُ على عظمها والأَرْضِينَ السَّبْعُ مثلما لو وضع الإنسان في يده خردلة -وهي حبة الخردل التي بكبر حبة السمسم- وهذا أيضا تمثيل على سبيل التقريب، وإلا فالله تعالى أعظم وأجل، فكل المخلوقات بالنسبة له تعالى ليست بشيء"^(٢).

فلو أن العبد عرف الله حق المعرفة وقدره حق قدره، ما صرف أي شيء من العبادات قل أو كثر لغيره لأن غير الله يقيناً مهما كانت منزلته عند الله، فإن المتفضل عليه بهذه المنزلة هو الله تعالى فأكرمه بالنبوة والرسالة أو يجعله من أوليائه الصالحين أو شرفه الله بأن خلقه من الملائكة المقربين فكل هؤلاء الذي تفضل عليهم بهذه الكرامة هو الله سبحانه، فكيف ينقل ما لله من حق التقدير إلى المخلوق الذي لا يملك ضراً ولا نفعاً لنفسه فضلاً لغيره، فهذا أكرم خلق الله، وأكرم من تفضل الله عليه بالرسالة والنبوة، وأكرمه بالمنزلة الرفيعة يقول عن نفسه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

وذكر الله تعالى عن رسوله ﷺ قوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وأخبر الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم في أكثر من آية أن يقول للناس: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وأخبر صلى الله عليه وسلم عن نفسه أنه لا يملك لأقرب الناس له شيئاً، فكيف بالبعيد عنه، ومن تلك الآيات والأحاديث:

صححه ابن حبان .. وله شاهد عن مجاهد أخرجه سعيد بن منصور في التفسير بسند صحيح عنه"، وصححه الألباني

بمجموع طرقه في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٢٦) ح (١٠٩).

(١) تفسير الطبري ط هجر (٢٠/ ٢٤٦).

(٢) تفسير العثيمين لسورة سبأ (١٧١).

- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

وقال تعالى عن بقية الأنبياء: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١١-١٢].

وقال تعالى عن الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ ۚ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَن ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

أما من السنة، فيقول ﷺ لعشيرته وقرباته: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ يَا أُمَّمُ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ اشْتَرِيَا أَنْفُسَكُمَا مِنَ اللَّهِ لَا أَمْلِكُ لَكُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا سَلَانِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمَا»^(١).

وفي الحديث أيضاً يقول صلى الله عليه وسلم لقرباته: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، يَا مَعْشَرَ بَنِي قُصَيٍّ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٨٥ ط السلطانية) ح (٣٥٢٧).

وَلَا نَفْعًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، إِنَّ لَكَ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بَبْلًا لَهَا»^(١).

وفي رواية أخرى يقول صلى الله عليه وسلم لقرابته: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ، عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»^(٢). ويقول ﷺ عن نفسه: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(٣).

فإذا كان هذا حال الملائكة والأنبياء، فكيف بمن دونهم ممن يقال عنه أنه ولي صالح، فإذا عرف حق الله وقدره حق التقدير عرف قدر غيره، لكن الخلل العظيم وباب الشر المستطير ومفتاح الانحراف عن العقيدة الصحيحة، أن يجعل ما للخالق من حق للمخلوق الضعيف الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، فضلاً أن يملك ذلك لغيره نعوذ بالله من الخذلان، ومن هذا الباب فتحت أبواب الشرك وتعلقت القلوب بغير الله وجعلت ما لله من حقوق لغيره، ف وقعت في أعظم ظلم عرفته البشرية وهو الشرك الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۖ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ، ونختم بقوله تعالى كما بدأنا بذلك: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۖ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۖ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. وسيأتي مزيد بيان لهذا في العنصر الآتي:

(١) أخرجه الترمذي (٥ / ٣٣٨ ت شاكر) ح (٣١٨٥).

(٢) أخرجه النسائي (٦ / ٢٤٩) ح (٣٦٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤ / ١٦٧ ط السلطانية) ح (٣٤٤٥).

الثاني: الغلو في الصالحين من الأنبياء والملائكة والأولياء والجن، وهو أعظم باب للشرك والكفر بالله والانحراف في العبادات، ومنها عبادة الذكر والدعاء.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وهنا نقل ما كتبه الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب المبارك كتاب التوحيد في هذه المسألة حيث بوب بقوله: "باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين."

وقول الله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قال: "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت" (١).
وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: "لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم" (٢).

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٦٠ ط السلطانية) رقم (٤٩٢٠).

(٢) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ١٨٤ ت الفقهي).

وعن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(١) أخرجاه.

وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي كُنتُمُ الْغُلُوفُ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوفُ فِي الدِّينِ»^(٢).

ومسلم عن ابن مسعود: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ فَالَهَا ثَلَاثًا»^(٣) (٤).

الثالث: الغلو في قبور الصالحين والتعلق بها - ونقل حق الله من تقديره حق التقدير إلى أصحاب القبور - يجعلها من الأوثان التي تعبد من دون الله.

من أبواب الشرك العظيمة - التي وقع فيها من يقدرون غير الله حق التقدير ويتعلقون بهم من دون الله - الغلو في قبور الصالحين، الذي اصطاد به الشيطان أمماً كثيرة فأوقعها في ظلام الشرك، وجعلها تصرف ما هو حق خالص لله للمخلوق، ومن ذلك شرك الدعاء، ولذا توافرت النصوص في التحذير من هذا، وبينت أنها بسبب ذلك تصير أوثاناً تعبد من دون الله، فقد أوحى "عدو الله وعدو عباده المؤمنين إبليس إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بقبور الأنبياء والأولياء والصالحين، حتى آل الأمر فيها إلى أن عبد أربابها من دون الله، وعبدت قبورهم واتخذت أوثاناً، وبنيت عليها الهياكل، وصورت أربابها ثم جعلت تلك الصور أجساداً لها ظل، ثم جعلت أصناماً وعبدت مع الله تعالى، وكان أول وقوع هذا الداء في قوم نوح كما أخبر الله سبحانه عنهم في كتابه حيث يقول"^(٥): ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٧ ط السلطانية) ح (٣٤٤٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٠٠٨ ت عبد الباقي) ح (٣٠٢٩) وصححه الألباني في تحقيقه لابن ماجه ح (٣٠٢٩) وصحح إسناده الأرنؤوط في تحقيقه لسنن ابن ماجه (٤/ ٢٢٨ ت الأرنؤوط) ح (٣٠٢٩).

(٣) أخرجه مسلم (٨/ ٥٨ ط التركية) ح (٢٦٧٠).

(٤) التوحيد لابن عبد الوهاب (ص ٥٦-٥٧).

(٥) فقه الأدعية والأذكار (٢/ ١٣٠).

وَلَا يَعْوْثُ وَيَعُوْقُ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴿٢٤﴾ [نوح: ٢٣-٢٤]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ: كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجُنْدَلِ، وَأَمَّا سُوعٌ: كَانَتْ لَهُدَيْلٍ، وَأَمَّا يَعْوْثُ: فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِنَبِيِّ غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَأٍ، وَأَمَّا يَعْوْقُ: فَكَانَتْ لَهُمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ: فَكَانَتْ لِحَمِيرٍ، لِأَلِ ذِي الْكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أُوحِيَ الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَاسْمُوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَتَنَسَّحَ الْعِلْمُ عُيِدَتْ»^(١).

وروى ابن جرير رحمه الله بسنده إلى محمد بن قيس رحمه الله قال: "﴿وَيَعُوْقُ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] قال: كانوا قومًا صالحين من بنى آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم"^(٢).

وفي هذا المقام أحب أن أنقل كلاماً متيناً شافياً كافياً في هذه المسألة العظيمة لابن القيم رحمه الله وسأنقله بطوله لأهميته^(٣):

"وقال غير واحد من السلف: «كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٦ / ١٦٠ ط السلطانية) رقم الأثر (٤٩٢٠).

(٢) تفسير الطبري جامع البيان - ط هجر (٢٣ / ٣٠٣).

(٣) إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان (١ / ٣٣٢ - ٣٤٢ ط عطاءات العلم) واعتمدت على تحريجات هذه الطبعة في الأحاديث والآثار ونسبة الأقوال كسباً للوقت، وجزاهم الله جميعاً خيراً.

(٤) ينظر: الدر المنثور (١٤ / ٧١٣) ط. التركي.

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل، وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها: أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها: مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح؛ بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»^(١).

وفي لفظ آخر في «الصحيحين»: أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتهما^(٢). فجمع في هذا الحديث بين التماثيل والقبور.

وهذا كان سبب عبادة اللات. فروى ابن جرير بإسناده عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ} [النجم: ١٩]، قال: «كان يَلْتَّ لهم السَّوِيق، فمات، فعكفوا على قبره»^(٣).

وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: «كان يَلْتَّ السَّوِيق للحاج»^(٤). فقد رأيت أن سبب عبادة يغوث ويعوق ونسر واللات إنما كانت من تعظيم قبورهم، ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها كما أشار إليه النبي - صلى الله عليه وسلم -.

قال شيخنا^(٥): وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور؛ هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك؛ فإن النفوس قد أشركت

(١) البخاري (٤٣٤)، ومسلم (٥٢٨).

(٢) البخاري (٣٨٧٣)، ومسلم (٥٢٨).

(٣) تفسير الطبري (٢٢ / ٥٢٣).

(٤) رواه البخاري رقم (٤٨٥٩).

(٥) ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢ / ١٩٢ وما بعدها).

بتمثيل القوم الصالحين، وتمثيل يزعمون أنه طلاس للكواكب ونحو ذلك؛ فإن الشُّرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر. ولهذا تجدد أهل الشرك كثيراً يتضرعون عندها، ويخشعون ويخضعون، ويعبدونهم بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله، ولا وقت السَّحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد.

فلأجل هذه المفسدة حَسَم النبي - صلى الله عليه وسلم - مادتها، حتى نهي عن الصلاة في المقبرة مطلقاً، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد، كما نهي عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها؛ لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاة فيها للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذٍ، وإن لم يقصد المصلي ما قصده المشركون، سداً للذريعة.

قال: وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور، متبرِّكاً بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحادة لله ورسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دينٍ لم يأذن به الله؛ فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه لعن من اتخذها مساجد، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشُّرك: الصلاة عندها، واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها، فقد تواترت النصوص عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه، فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها، متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة.

وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة، والذي ينبغي أن يحمل على كراهة التحريم؛ إحساناً للظن بالعلماء، وأن لا يُظنَّ بهم أن يُجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعن فاعله، والنهي عنه. ففي «صحيح مسلم» عن جُنْدَب بن عبد الله البجلي، قال: سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل؛ فإن الله

قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت مُتخذاً من أمتي خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ألا وإن مَنْ كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد؛ [٥٣ أ] ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك»^(١).

وعن عائشة وعبد الله بن عباس، قالوا: لما نُزل برسول الله - صلى الله عليه وسلم - طَفِقَ يَطْرُحُ حَمِيصَةً له على وجهه، فإذا اغْتَمَّ كشفها، فقال وهو كذلك: «لعنةُ الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»؛ يُحذِّر ما صنعوا. متفق عليه^(٢).

وفي «الصحيحين» أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «قاتل الله اليهود! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٣).

وفي رواية مسلم: «لعن الله اليهود والنصارى! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٤).

فقد نُهي عن اتخاذ القبور مساجد في آخر حياته، ثم إنه لعن وهو في السياق مَنْ فعل ذلك من أهل الكتاب؛ لِيُحذِّر أُمَّتَهُ أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ.

قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مرضه الذي لم يَقُمْ منه: «لعن الله اليهود والنصارى! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، ولولا ذلك لَأُبْرِرَ قبره؛ غير أنه حُشي أن يُتخذ مسجداً. متفق عليه^(٥).

وقولها: «حُشي» هو بضم الخاء؛ تعليلاً لمنع إبراز قبره.

وروى الإمام أحمد في «مسنده» بإسناد جيد عن عبد الله بن مسعود

(١) برقم (٥٣٢).

(٢) البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).

(٣) البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠).

(٤) مسلم (٥٣٠).

(٥) البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩).

رضي الله عنه، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «إن من شرار الناس من تُدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»^(١).

وعن زيد بن ثابت، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «لعن الله اليهود! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». رواه الإمام أحمد^(٢).

وعن ابن عباس، قال: «لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج». رواه الإمام أحمد، وأهل «السنن»^(٣).

(١) مسند أحمد (١/ ٤٠٥، ٤٣٥) من طريق زائدة عن عاصم بن أبي النجود عن شقيق عن ابن مسعود، وبهذا السند رواه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٠)، والبزار (١٧٢٤)، وأبو يعلى (٥٣١٦)، والشاشي (٥٢٨)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٨٨)، وغيرهم، وصححه ابن خزيمة (٧٨٩)، وابن حبان (٢٣٢٥، ٦٨٤٧)، وابن تيمية في شرح العمدة (٤/ ٤٢٨)، وحسنه في الاقتضاء (ص ٣٣٠)، وقال الذهبي في السير (٩/ ٤٠١): «هذا حديث حسن قوي الإسناد»، وحسنه الهيثمي في المجمع (٢/ ١٤٣) وقال (٨/ ٢٦): «عاصم ثقة وفيه ضعف، وبقيّة رجاله رجال الصحيح»، وحسنه الشوكاني في شرح الصدور (ص ٥٣)، والشنقيطي في الأضواء (٢/ ٢٩٦). وله طريق أخرى، فرواه أحمد (١/ ٤٥٤) والبزار (١٧٨١) من طريق الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة السلماني عن ابن مسعود، وبمجموع الطريقين صححه الألباني في تحذير الساجد (ص ٢٣). وفي الباب عن أبي عبيدة بن الجراح وعلي وعمران بن حصين رضي الله عنهم.

(٢) مسند أحمد (٥/ ١٨٤، ١٨٦) من طريق عقبة بن عبد الرحمن عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن زيد به، وبهذا الإسناد رواه عبد بن حميد (٢٤٤)، والطبراني في الكبير (٥/ ١٥٠)، قال الهيثمي في المجمع (٢/ ١٤٣): «رجاله موثقون»؛ وذلك لأن عقبة شيخ مجهول ذكره ابن حبان في الثقات، إلا أنّ الحديث صحيح لشواهد الكثرة، ففي الباب عن ابن عباس وعائشة وأبي هريرة وأسامة وعلي وأبي بكر وعن عمر بن عبد العزيز والحسن بن الحسن وعبيد الله بن عبد الله وعمرو بن دينار مرسلًا.

(٣) مسند أحمد (١/ ٢٢٩، ٢٨٧، ٣٢٤، ٣٣٧)، سنن أبي داود (٣٢٣٨)، سنن الترمذي (٣٢٠)، سنن النسائي (٢٠٤٣)، سنن ابن ماجه (١٥٧٥) مقتصرًا على لعن زوارات القبور، ورواه أيضا الطيالسي (٢٧٣٣)، وابن الجعد (١٥٠٠)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٥١، ٣٠)، وغيرهم من طريق محمد بن جحادة عن أبي صالح عن ابن عباس، قال الترمذي: «حديث حسن»، وصححه ابن السكن كما في تحفة المحتاج (٢/ ٣٢)، وابن حبان (٣١٧٩)، (٣١٨٠)، والحاكم (١٣٨٤)، وابن دقيق العيد في الإمام (٥٧٤)، وحسنه البغوي في شرح السنة (٥١٠)، وقد اختلف في أبي صالح من هو؟ فقيل: هو السمان، قال ابن رجب في الفتح (٢/ ٤٠٣): «وفيه بُعد»، وأغرب ابن

وفي «صحيح البخاري»: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أنس بن مالك يصلي عند قبر، فقال: القبر، القبر^(١).

وهذا يدل على أنه كان من المستقرّ عند الصحابة رضي الله عنهم: ما نهاهم عنه نبيهم من الصلاة عند القبور، وفعل أنس لا يدل على اعتقاد جوازه؛ فإنه لعله لم يره، أو لم يعلم أنه قبر، أو ذهل عنه، فلما تبّهه عمر تنبّه.

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام» رواه الإمام أحمد، وأهل «السنن الأربعة»، وصححه أبو حاتم بن حبان^(٢).

وأبلغ من هذا: أنه نهى عن الصلاة إلى القبر، فلا يكون القبر بين المصلي وبين القبلة. فروى مسلم في «صحيحه» عن أبي مرثد العنوي، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلّوا إليها»^(٣).

حبان فقال: «اسمه ميزان بصري ثقة»، والجمهور على أنه باذان أو باذام مولى أم هانئ، قال ابن رجب: «ضعفه الإمام أحمد وقال: لم يصح عندي حديثه هذا، وقال مسلم في كتاب التفصيل: هذا الحديث ليس بثابت، وأبو صالح باذام قد اتقى الناس حديثه، ولا يثبت له سماع من ابن عباس»، وهو في السلسلة الضعيفة (٢٢٥). وفي الباب عن حسان بن ثابت وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(١) هذا الأثر معلق في أبواب المساجد من صحيح البخاري، باب: هل تُنبش قبور مشركي الجاهلية ويُتخذ مكانها مساجد؟ ورواه عبد الرزاق (١/ ٤٠٤) - ومن طريقه ابن المنذر في الأوسط (٢/ ١٨٦) - عن معمر عن ثابت عن أنس، صححه الألباني في تحذير الساجد (ص ٣٥). ورواه أيضاً ابن أبي شيبه (٢/ ١٥٣) وابن منيع - كما في المطالب العالية (٣/ ٤١٧) - والبيهقي في الكبرى (٢/ ٤٣٥) من طرق عن حميد عن أنس قال: قمت يوماً أصلي وبين يديّ قبر لا أشعر به، فناداني عمر: القبر القبر. ورواه ابن أبي شيبه وابن منيع - كما في المطالب العالية - عن هشيم عن منصور عن الحسن عن أنس عن عمر، قال ابن حجر: «هذا خبر صحيح».

(٢) رواه أهل السنن كلهم إلا النسائي.

(٣) برقم (٩٧٢).

وفي هذا إبطال قول من زعم أن النهي عن الصلاة فيها لأجل النجاسة، فهذا أبعد شيء عن مقاصد الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وهو باطل من عدة أوجه:

منها: أن الأحاديث كلها ليس فيها فرق بين المقبرة الحديثة والمنبوثة، كما يقوله المعللون بالنجاسة.

ومنها: أنه - صلى الله عليه وسلم - لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم قطعاً أن هذا ليس لأجل النجاسة؛ فإن ذلك لا يختص بقبور الأنبياء، ولأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع، ليس للنجاسة عليها طريق البتة، فإن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجسادهم، فهم في قبورهم طريئون.

ومنها: أنه نهي عن الصلاة إليها.

ومنها: أنه أخبر أن الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر الحشوش والمجازر ونحوها أولى من ذكر القبور.

ومنها: أن موضع مسجده - صلى الله عليه وسلم - كان مقبرة للمشركين، فنَبَشَ قبورهم وسَوّاهَا واتخذهُ مسجداً، ولم ينقل ذلك التراب، بل سوى الأرض ومهدّها وصلى فيه.

كما ثبت في «الصحيحين» عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: لما قدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة، فنزل بأعلى المدينة في حَيٍّ يقال لهم: بنو عمرو بن عَوْفٍ، فأقام النبي - صلى الله عليه وسلم - فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى ملأ بني النجار، فجاءوا مُتَقَلِّدين السيوفَ، وكأني أنظر إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - على راحلته، وأبو بكر دونه، وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، وكان يُحِبُّ أن يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مَرَابِضِ الغنم، وإنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ بني النجار، فقال: «يا بني النجار! ثامنوني بجائطكم هذا»، قالوا: لا والله، لا نطلبُ ثمنه إلا إلى الله، فكان فيه ما أقول لكم: قبور المشركين، وفيه حَرْبٌ، وفيه نخل، فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بقبور

المشركين فُنِشَتْ، ثم بِالْحَرْبِ فَسُوتِ، وبالنخل فَقُطِعَ، فصَقُّوا النخل قِبْلَةَ المسجد، وجعلوا عِضَادَتِيهِ الحجارة، وجعلوا ينقلون الصخر وهم يَرْجُزُونَ. وذكر الحديث^(١).

ومنها: أن فتنة الشرك بالصلاة في القبور ومشاهدة عُبَاد الأوثان أعظم بكثير من مفسدة الصلاة بعد العصر والفجر، فإذا نَهَى عن ذلك سَدًّا لذريعة التشبه الذي لا يكاد يخطر ببال المصلي؛ فكيف بهذه الذريعة القريبة التي كثيراً ما تدعو صاحبها إلى الشرك، ودعاء الموتى، واستيجابهم، وطلب الحوائج منهم، واعتقاد أن الصلاة عند قبورهم أفضل منها في المساجد، وغير ذلك، مما هو محاذة ظاهرة لله ورسوله؟

فأين التعليل بنجاسة البقعة من هذه المفسدة مما يدل على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قصد منع الأمة من الفتنة بالقبور؛ كما افتتن بها قوم نوح ومن بعدهم؟

ومنها: أنه لعن المتخذين عليها المساجد، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لأمكن أن يتخذ عليها المسجد مع تطيينها بطين طاهر، فتزول اللعنة، وهو باطل قطعاً.

ومنها: أنه قرن في اللعنة بين متخذي المساجد عليها، وموقدي الشُّرْج عليها، فهما في اللعنة قرينان، وفي ارتكاب الكبيرة صِنَوان؛ فإن كل ما لَعَنَ عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهو من الكبائر، ومعلوم أن إيقاد الشُّرْج عليها إنما لَعَنَ فاعله لكونه وسيلة إلى تعظيمها، وجعلها نُصْبًا يُوفَضُّ إليه المشركون، كما هو الواقع، فهكذا اتخذ المساجد عليها، ولهذا قرن بينهما؛ فإن اتخذ المساجد عليها تعظيم لها، وتعرض للفتنة بها، ولهذا حكى الله سبحانه عن المتغلبين على أمر أصحاب الكهف، أنهم قالوا: {لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا} [الكهف: ٢١].

(١) البخاري (٤٢٨)، ومسلم (٥٢٤).

ومنها: أنه - صلى الله عليه وسلم - قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، فذكره ذلك عقيب قوله: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»^(١) تنبيه منه على سبب لحوق اللعن بهم، وهو توسلهم بذلك إلى أن تصير أوثاناً تُعبد. وبالجملة؛ فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفهم عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - مقاصده، جزم جزمًا لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه واللعن والنهي بصيغتيه - صيغة «لا تفعلوا»، وصيغة «إني أنهاكم» - ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه أو عُدِمَ من تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإن هذا وأمثاله من النبي - صلى الله عليه وسلم - صيانة لحِمَى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له وغضب لربه أن يُعَدَلَ به سواه. فأبى المشركون إلا معصية لأمره، وارتكاباً لنهيهِ، وغرهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشد لها تعظيمًا، وأشدَّ فيهم غلوًا كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد.

ولعمُرُ الله من هذا الباب بعينه دُخِلَ على عبَاد يغوث ويعوق ونسر، ومنه دُخِلَ على عبَاد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم، وهَدَى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها، من العبودية وسلب

(١) رواه مالك (٤١٤) - ومن طريقه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢ / ٢٤٠) - عن زيد ابن أسلم عن عطاء بن يسار به مرسلًا، وروى موصولًا من طريق أخرى عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد. ورواه الحميدي (١٠٢٥) - ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٧ / ٣١٧) - وابن سعد (٢ / ٢٤١) وأحمد (٢ / ٢٤٦) والبخاري في التاريخ الكبير (٣ / ٤٧) والمفضل الجندي في فضائل المدينة (٥١) وأبو يعلى (٦٦٨١) وغيرهم عن ابن عينة عن حمزة بن المغيرة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعًا، قال البوصيري في إتحاف الخيرة (٣ / ٢٦٠): «رجاله ثقات»، وصححه الألباني في أحكام الجنائز (ص ٢١٧). وفي الباب عن عمر وعن سعيد بن أبي سعيد مولى المهري.

خصائص الإلهية عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم. وأمّا المشركون فعصوا أمرهم، وتنقصوهم في صورة التعظيم لهم" انتهى بطوله من كتاب إغاثة اللفهان^(١).

(١) إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان (١ / ٣٣٢-٣٤٢ ط عطاءات العلم).

المطلب الثالث: دور علماء السوء وأئمة الضلال^(١).

وهذا السبب من أعظم أسباب الانحراف في الأمة، حينما زين لها دعاة السوء وعلماء الضلال طرائق الشرك واجتهدوا في إبعاد الأمة عن الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح ونفروها من العلماء الصالحين المعتصمين بالكتاب والسنة تارة بتشويه سمعتهم وزعمهم أنهم يكرهون الأنبياء والأولياء، وتارة بنسبتهم إلى فرق الضلال التي تحارب الله ورسوله، ويزعمون لاتباعهم أن هؤلاء كذلك يحاربون الله ورسوله مثل نبيهم لمن يتبعون مذهب السلف بالحشوية^(٢) قديماً وبالوهابية^(٣)

(١) ينظر في هذا: الدعاء ومنزلته الشرعية في العقيدة (١/٤٤٨-٤٥٢).

(٢) وهي كلمة ذم عند الفرق المنحرفة لأهل المنهج الحق السنة والجماعة يصفونهم بضعف العقل وضعف الفهم لتنفير الناس منهم.

(٣) ويقصدون بهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وأئمة الدعوة السلفية الذين ينشرون العقيدة الصحيحة في الأرض، فيسموهم بمثل هذه المسميات لتنفير الناس عنهم وعن دعوة الإسلام التي يدعون إليها، يقول الشيخ الدكتور محمد بن سعد الشويعر في مقدمة كتابه تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية (ص ٩-١٠) عن "سبب التأليف الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. وبعد، كنت قد أخرجت كتاباً صغيراً باسم تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية يقع في ١١٠ صفحات تقريباً وطبع للمرة الأولى بتطوان بالمغرب عام ١٤٠٧ هـ وطبعته دار المعارف بالرياض الطبعة الثانية عام ١٤١٣ هـ، أوضحت فيه بأن خصوم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأعداء دين الله الحق، من أرباب المصالح الدنيوية ممن يريدون إطفاء نور الله والتصدي لمن يريد أن يحقق التوحيد الذي أمر به الله وأرسل به رسوله من أولهم إلى آخرهم: دعوة وتطبيقاً وتنقية من مداخل الشرك.

فوجدوا دعوة خارجية أباضية في شمال إفريقيا نشأت في القرن الثاني الهجري باسم الوهابية نسبة إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الخارجي الأباضي، ووجدوا فتاوى من علماء المغرب والأندلس ممن عاصروها أو جاء بعدها فأرادوا شيئاً عاجلاً يحقق الغرض وينهض المهم لإسكات الدعوة الجديدة خوفاً من توسع الدائرة الإسلامية حيث قامت الدولة السعودية الأولى مناصرة للدعوة التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب - فتصافحت يد الإمامين: محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب رحمهما الله في عام ١١٥٧ هـ على القيام بهذه الدعوة نصرة لدين الله وأداء لأمانة التبليغ.

فوفق الله ولقيت الدعوة قبولاً وتأيداً حيث امتدت إلى العام الإسلامي كله وتأثر بها العلماء من الحجاج وبدأوا في نشرها في بلادهم.... فخاف المنتفعون دنيوياً من آثارها ووجدوا الضالة في الوهابية الرستمية، المدفون خبرها في سجلات التاريخ فنبشوا في فتاوى العلماء حولها وكانت فرصة لبالب الثوب القديم للدعوة الجديدة ووجدت الإشاعة صدى في

حديثاً في سلسلة من التعاون الشيطاني على ذلك، واستغلال الوسائل المتاحة لهم في تنفير الناس من أهل العلم الذين على المنهج الحق، واليوم تمكّنوا من وسائل الإعلام بكل أنواعها لصد الناس عن الحق وربطهم بأهل الباطل والضلال، في حركة فكرية لا تكل ولا تمل يمدّها شياطين الإنس والجن، وينفخون فيها بقوة لينشروا باطلهم وضلالهم، كما قال الله تعالى عنهم وعن اتباعهم الذين يصغون لهم بأسماعهم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

وبعد أن كان العلماء العاملون بعلمهم هم الذين الحكام ويوجهون الشعوب، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يخافون في الله لومة لائم، وكانوا يحاربون الشرك والبدع، وهم والله الحمد يوجدون في تاريخ الأمة في كل الأوقات، إلا أنه تمر بالأمة بعض الازمان يتمكن فيها علماء السوء في بعض بلدان المسلمين، فيتركوا هذا الواجب الديني المنوط بهم ويرضوا بالحياة الدنيا ويركنوا إليها طمعاً في زهرتها، فيتقربوا إلى بعض أئمة الضلال بتحويل نصوص الكتاب والسنة والإفتاء على حسب أهواء العوام والسلطين لينالوا حظوة وقرى لديهم ويبحثون عن الرخص، وقد يصل الأمر ببعضهم إلى تصنيف كتب لأهل الأهواء، وبعض علماء السوء يتقرب إلى العوام والجهال بتبرير وإجازة ما يفعلونه من بدع وشركيات وخرافات، فتارة يؤولوه بالمجاز، وتارة بالتوسل، وتارة يؤيدوه بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، وتارة بحجج فلسفية، ومنهم من يؤلف في إباحة دعاء الموتى وإنزال الحوائج بهم مؤلفات، وينشرها بين الجهال؛ لينال حظوة عندهم بذلك، وللتقرب لذوي السلطة ليتمكنوا من صناديق النذور

النفوس لأن أرباب المنافع الدنيوية جهدوا في التمويه والتشويه والناس عادة يتلقفون الكذب أكثر من اهتمامهم وتحريمهم للصدق..". للتوسع في هذا ينظر لازماً: كتاب تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية .

والانتفاع بما فيها من الأموال، فهؤلاء الذين ابتليت بهم الأمة في الكثير من ديار المسلمين هم من جملة أسباب انتشار دعاء الموتى والاستعانة بهم.

وقد عكسوا القضية من حيث أن الله أمرهم بتبليغ الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما من شك أن أعظم المنكرات الشرك بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ وَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقد خاف الرسول ﷺ على أمته من أئمة الضلال، فقال محذراً منهم: "وَأِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ" الحديث^(١).

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُنَافِقٍ عَلِيمٍ اللَّسَانِ»^(٢).

وقد وقع ما خاف منه النبي ﷺ وحذر الأمة منه، فوقع في بعض فترات ضعف الأمة وغفلتها عن الاعتصام بالكتاب والسنة، تسلط بعض أئمة الضلال من الرافضة والباطنية والزنادقة، فنشروا العقائد الضالة والأفكار المنحرفة بكل ما أمكنهم من وسائل، فتسلطت الدولة العبيدية

(١) أخرجه أبو داود (٤ / ٩٨ ت محيي الدين عبد الحميد) ح (٤٢٥٢)، والترمذي (٤ / ٥٠٤ ت شاكر) ح (٢٢٢٩) وقال: "حسن صحيح"، والإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٠ / ٤٣١) ح (٤٥٧٠)، والمستدرک علی الصحیحین للحاکم - ط العلمية (٤ / ٤٩٦) ح (٨٣٩٠) وصححه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥ / ٢٣٩) ح (٩٢١٥): "رواه أحمد ورجاله ثقات"، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١ / ٣٦٤) ح (١٧٧٣)، وقال الأرنؤوط في تحقيقه لسنن أبي داود ح (٤٢٥٢): "إسناده صحيح".

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١ / ٢٨٩) ح (١٤٣)، وابن حبان في صحيحه (١ / ٢٨١)، ح (٨٠)، وقال في مجمع الزوائد (١ / ١٨٧) ح (٨٨٦): "رواه البزار وأحمد وأبو يعلى، ورجاله موثقون"، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١ / ١٠٧) ح (٢٣٩)، وقال محقق مسند أحمد (١ / ٢٨٩): "سنده قوي".

- المسماة زوراً بالفاطمية ونشرت بقوة السلطان المعتقدات الباطلة وبنّت المشاهد على القبور ودعت إلى عبادة قادتها، وسهلت للناس عبادة القبور والتعلق بها.
- وهناك من الفرق الضالة من غلوا في أئمة آل البيت، وبنوا على قبورهم أو الأماكن التي يزعمون أنها قبورهم المشاهد والقباب والأضرحة المزخرفة ولا يزالون إلى يومك هذا ينشرون في بلاد المسلمين ويفسدون عقائد الأمة بشتى الوسائل.
- وكذلك بعض من نشر دعاء غير الله زنادقة يحاربون الإسلام وأهله ويتخفون تحت مسميات تروج على العامة، ولذلك عدة أمثلة، منها:
٨. ومنها ما ذكره ابن الجوزي عن ابن عقيل الحنبلي أنه ذكر أن الملاحدة لما رأوا انتشار الإسلام ولم يستطيعوا مقاومته اندسوا بين المسلمين فعملوا حيلاً منها ما يقارب المعجزات من ذكر خواص في أحجار وخوارق العادات في بعض البلاد وأخبار عن المغيبات عن كثير من الكهنة والمنجمين، وبالغوا في تقرير ذلك، وذلك ليقول من رأى ذلك مع عدم علمه لقصدتهم وهل ما جاء به الأنبياء إلا مقارب هذا^(١).
٩. ومن ذلك ما ذكره ابن حزم أن بعض الفرس لما عجزوا عن مقاومة انتشار الإسلام أظهروا التشيع، وذلك لكيد الإسلام وأهله^(٢).
١٠. وذكر ابن الجوزي في تاريخه أن اتباع القرامطة والعبّيديين طائفة انقطعت دولة أسلافهم بدولة الإسلام كأبناء الأكاسرة والدهاقين وأولاد المجوس فهؤلاء حاقدون على الإسلام كما ذكر أن منهم من قصد إبطال الإسلام ورد الدولة الفارسية وأظهر مذهب الإمامية^(٣).

(١) ينظر: تلبس إبليس (٦٣).

(٢) الفصل (٩١/٢).

(٣) المنتظم (٢٩٩/١٢).

١١. وكذلك كان للصوفية دور كبير في نشر دعاء غير الله من الأولياء المقبورين، وكان منهم زنادقة تخفوا تحت مسمى التصوف ليتمكنوا من هدم الدين الحق في قلوب اتباعهم^(١)، وكان لهم دور كبير في إبعاد الأمة عن عقيدة التوحيد وتزيين عقائد الشرك والتلبس على الناس بأن ذلك هو الحق الذي جاء به الكتاب والسنة، وتزويد الناس في العلم الصحيح الذي يرفع الجهل عنهم، وتنفيهم من العلماء الصالحين العاملين، وإبعاد الناس عن الفهم الصحيح للقرآن والسنة بحجة صعوبة فهم القرآن والسنة، وأنه لا يستطيع فهمهما إلا من درس كل العلوم من نحو وصرف وبيان ومعان ولغة والفقه وأصوله والمنطق، وغير ذلك مما يضعونه من عوائق في طريق تدبر القرآن وفهمه وفهم أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه في الصحيحين وفي غيرهما، وقل ربط القرآن بواقع الناس ولبس عليهم أن آيات الشرك إنما هي في كفار قريش، وأن ما يفعله الناس عند القبور لا يدخل تحت الشرك بل عملهم هذا من الدين وتقدير الأنبياء والصالحين وهكذا يلبس على الناس الباطل، حتى يتمكن دعاته من صد الناس عن الحق، والله المستعان.

(١) من أمثال الخلاج، وابن سبعين، وابن العربي، والسهردوري، وابن الفارض، وغيرهم.

المطلب الرابع: تزيين دعاة الباطل للأدعية المحدثه، واشغال اتباعهم بها عن الذكر الشرعي.

وقد مر معنا الكلام على أنه ينبغي على المسلم أن يحرص على الأدعية الثابتة بنصوص الشرع، ولا يحيد عنها إلا إذا احتاج إلى دعاء خاص في رغبته وحينها لا بأس أن يدعو بمطلبه الخاص بأسلوبه الخاص؛ ولكن لا بد أن يراعي الضوابط الشرعية في ذلك الدعاء الذي ينشؤه من نفسه، وقد سبق الكلام عليها.

ولقد زين أهل الضلال ودعاة الباطل لاتباعهم بأن يلتزموا بأدعية محدثة ويواظبوا عليها كأنها جاء بها النص الشرعي، وهي أدعية لا تخلو من المحاذير الشرعية، لأن الدعاء عبادة كما نعرف والعبادة لا تأخذ إلا من الكتاب والسنة، ومن تلك الأدعية ما يرتبه أصحاب الطرق الصوفية لاتباعهم من أوراد بدعية محدثة ليس عليها دليل من كتاب أو سنة، وإنما اخترعها من يسمونهم الأولياء، وصار الاتباع يلتزمون بها أكثر من الأوراد الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة، بل أنهم يهجرون لأجلها ما جاء به الكتاب والسنة رغبة عنه لما زين لهم أهل الباطل من أن تلك الأوراد أفضل مما ورد في الكتاب والسنة، والله المستعان.

وذلك لأن القلوب خلت من تعظيم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وتعلقت بغير الله، وترتب على ذلك الكثير من الآثار السيئة على أصحاب هذه الأوراد المحدثه، ومن ذلك:

يقول الشيخ عبد الرزاق البدر حفظه الله: "وما من ريب أن هذه الأدعية المبتدعة لها نتائجها المؤسفة وآثارها السيئة على المسلم في عقيدته وأعماله التعبدية، وهي آثار كثيرة يطول حصرها، لكن قد أوجزها ولخصها الشيخ جيلان بن خضر العروسي في كتابه القيم: "الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية" ^(١)، في النقاط التالية:

أولاً: أن الأدعية المبتدعة لا تفي بالغرض المطلوب من العبادات من تزكية النفوس وتطهيرها من الرعونات، وتقريبها إلى بارئها، وتعلقها برها رجاء ورغبة ورهبة، فهي لا تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ولا تهدي سبيلًا.

(١) ينظر: الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية (٥٩٢-٥٩٨).

وأما الأدعية المشروعة فهي الدواء الناجع والبلسم الشافي للأدواء النفسية والأمراض القلبية والأهواء الشيطانية، فمن استبدل بها الأدعية المبتدعة فقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ثانياً: أن الأدعية المبتدعة تفوت على العبد الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي يحصل لمن التزم بالأدعية الواردة وحافظ عليها وطبقها كما وردت، فإنه يحوز السبق، ويتعرض لنفحات الرب وجوده، بخلاف من يدعو بالأدعية المبتدعة، فإنه يفوت على نفسه الأجر والثواب ويعرضها لسخط الله وغضبه.

ثالثاً: عدم إجابة الأدعية المبتدعة مع أن الهدف والأساس للداعي في الغالب هو إجابة مطلوبه، ونيل مرغوبه، ودفع مرهوبه، والأدعية المبتدعة لا يجاب الداعي بها، ولا تكون متقبلة منه، وفي الحديث: " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " ١ .

رابعاً: أن الأدعية المبتدعة تشتمل غالباً على محذور شرعي، وقد يكون ذلك المحذور من وسائل الشرك وذرائعه؛ إذ البدعة تجر إلى الشرك والضلال، فمن الأدعية البدعية التي تجر إلى الشرك: التوسل البدعي، فهو الذي فتح الباب لدعاء غير الله والاستغاثة والاستمداد بغيره، وقد يكون ذلك المحذور اعتداء في الدعاء ومجاوزة للحد، وسوء أدب في خطاب الرب ومناجاته، وقد يكون ذلك المحذور ما يصحب تلك الأدعية من بدع أخرى من تحديدها بأوقات معينة وبصفات خاصة، ورفع الأصوات على نغمات معينة، وإيقاعات خاصة وأسجاع مصطنعة، وتراكيب ركيكة تمجها الأسماع، وتستقبحها القريحة السليمة.

خامساً: أن الأدعية المبتدعة من التزم بها واعتادها قلما يرجع عنها إلى الأدعية المشروعة، إلا إذا وفقه الله وأعانه وهده إلى الخير، وذلك لأن القلوب متى اشتغلت بالبدع أعرضت عن السنن، حيث إن الملتزم بتلك الأدعية المبتدعة يعتقد أنها مشروعة ويدافع عنها، ولا يسمع إلى حجة ولا برهان.

سادساً: أن استعمال الأدعية البدعية، وترك الأدعية المشروعة من باب استبدال الخبيث بالطيب، والضار بالنافع، والشر بالخير، وهذا - ولا ريب - غبن فاحش، وتهور ظاهر، وخسارة فادحة.

سابعاً: أن في الأدعية المبتدعة المخترعة تشبها بأهل الكتاب في اختراعهم للأدعية المخالفة لما جاءت به رسلهم، وفيها أيضاً تشبه بهم في النعمات والإيقاعات والتمايلات وغير ذلك.

ثامناً: أن الذي يلزم الأدعية المبتدعة المخترعة لا سيما التي هي مؤلفة من أحزاب وأوراد يكون في الغالب جاهلاً لمعناها، وتنصرف همته إلى ألفاظها، وإلى سردها سرداً بدون تدبر، مع أن المطلوب في الدعاء إحضار القلب والإخلاص في السؤال، ولا سيما أن كثيراً من هذه الأدعية عبارة عن كلمات مرصوفة خفية المعنى غامضة الدلالة، وهذا الداعي بمثل هذه الأدعية غير سائل ولا داع، بل هو حاك لكلام غيره، ثم إن اختياره ذلك الدعاء على غيره من الأدعية لأجل الذي نظمته وإعجابه به، ففي ذلك تقديس لهذا الذي جمعها، ورفع له فوق منزلته من حيث يعتقد الداعي أن لأدعيته خاصية لا توجد في غيرها، وإلا لما دام عليها ليل نهار، بل بعضهم يصرح أن ورد شيخه أفضل الأوراد وأتمها وأكملها.

وبهذا يعلم مدى جناية هذه الأدعية المخترعة على المسلمين وعظم خطورتها عليهم، وأن الواجب على كل مسلم الحذر منها والبعد عنها ومجانبتها، وأن يقتصر على الوارد والمأثور عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فإنه أقوم قِيلاً، وأهدى سبيلاً^(١).

(١) فقه الأدعية والأذكار (٢/ ٥٥-٥٧).

المطلب الخامس: التعصب، والتقليد الأعمى، والتشبه بأهل الكفر.

ومن مصائد الشيطان التي اصطاد بها جبلاً كثيراً من الناس وأوقعهم في الضلال ومنه الشرك في الدعاء وفي غيره، تزيينه لما عليه الآباء والأجداد والمشايخ من الضلال والعادات المخالفة لشرع الله وما يقومون به من أمور وعقائد يعتقدها الآباء والأجداد في أهل القبور ودعائهم من دون الله، فيتعصب الأبناء والاتباع لذلك ويقلدون تلقيداً أعمى حتى لا يوصمون بأنهم يعادون الآباء والأجداد والمشايخ، وهذه طريقة إبليسية قديمة متجددة في إضلال الناس وإيقاعهم في شرك الشرك بمثل هذه الوسائل، وقد جاءت النصوص ببيان ذلك، فقال تعالى عن حال المشركين وبيان السبب الذي صدهم عن الحق المبين: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا

كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَضِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿الأعراف: ٧٠-٧٢﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦٦﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿هود: ٦١-٦٢﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿البقرة: ١٧٠﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ عَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا عَابَاءُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة في كتاب الله.

أما السنة فقد ورد فيها ما يدل على خطورة التقليد الأعمى، ومن ذلك: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِرًّا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكَوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكَتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ فَمَنْ؟»^(١).

ومن أعظم الأمثلة على خطورة التعلق بما عليه الآباء والأجداد ما حصل مع عم النبي صلى الله عليه وسلم أبي طالب، فعَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ «أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرَعْبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَلَا يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ فَتَزَلْتَ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]»^(٢).

ويدخل في هذا التشبه بأمم الكفر وعلى رأسهم اليهود والنصارى كما سبق في الأحاديث، وقال صلى الله عليه وسلم في تحذير أمته من التشبه بالكافرين:

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٩ ط السلطانية) ح (٣٤٥٦)، ومسلم (٨/ ٥٧ ط التركية) ح (٢٦٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٥٢ ط السلطانية) ح (٣٨٨٤).

عَنِ ابْنِ عُمرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١).
 وَعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ
 لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ
 أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سُبْحَانَ اللَّهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ
 مُوسَى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ
 مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ"^(٢).

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٤٤ ت محيي الدين عبد الحميد) ح (٤٠٣١)، وفي تخريج أحاديث الإحياء (ص ٣١٨) قال العراقي: "أخرجه أبو داود من حديث ابن عمر بسند صحيح"، وحسنه إسناده ابن حجر في الفتح (٢٧١/١٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٥٩/٢) ح (٦١٤٩).
 (٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٤٧٥ ت شاكر) ح (٢١٨٠) وقال: "حسن صحيح"، والنسائي في السنن الكبرى - ط الرسالة (١٠٠/١٠) ح (١١٢١)، وصححه الألباني في تحقيقه لسنن الترمذي ح (٢١٨٠).

المطلب الخامس: اتباع الهوى ومجالسة أهل البدع والأهواء.

اتباع الهوى من الأبواب التي يحصل من خلالها الانحراف عن العقيدة الصحيحة، وحصول الشرك من دعاء غير الله والأذكار المحدثه، وكذلك مما يلحق باتباع الهوى مجالسة أهله الذين يزينون للناس الباطل واتباع الأهواء، قال الله تعالى محذراً من اتباع الهوى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وذكر الله في كتابه ثمرة الخوف من الله ونهي النفس عن الهوى، فقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

أما مجالسة أهل الأهواء فهي الداء الدوي والسم القوي الذي يسري إلى القلوب فيدمر ما فيها من خير ويجذبها إلى أهل الباطل ويزين مجالسهم، فحينئذ يصاب من يجالسهم بقسوة القلب وظلمته وتنفذ إلى قلبه وتتخطفه الشبه، ويصير القلب مثل الإسفنجة التي تشرب بما حولها من القذى والقذر، فيحدث الهلاك والخسارة، ولهذا لا تستغرب تحذير السلف من مجالسة أهل الأهواء، والتنفير الشديد عن ذلك، مع قوة علمهم وقوة إيمانهم إلا أنهم كانوا يحذرون ويجذرون من مجالسة أهل الأهواء؛ لأن القلوب ضعيفة والشبه خطافة.

لأن مجالسة أهل الأهواء تفسد القلب وتقرضه، فلا يجد لذة في العبادة، وتذهب منه حلاوتها، وتجعله يفهم القرآن والسنة على منهج أهل البدع الذين يجالسهم فيتشرب فهمهم المنحرف للقرآن والسنة، ويصبح من دعاة الباطل المدافعين عنه وهو لا يشعر، ولذا ينبغي الحذر من مجالستهم لمن أراد السلامة لقلبه، وقد حذر النبي ﷺ أمته من هؤلاء، وبين خوفهم على أمته منهم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ

تَأْوِيلُهُ ۖ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ، فَاخْذَرُوهُمْ»^(١).

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ۚ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُنَافِقٍ عَلِيمٍ اللِّسَانِ»^(٢).

كان من منهج السلف رحمهم الله الحذر من مجالسة أهل البدع والأهواء والتحذير من ذلك أشد التحذير؛ لأن القلوب ضعيفة، والشبه خطافة، من تعرض لها تعلقت بقلبه وأفسدته. وقبل ذكر أمثلة من حياة السلف تبين شدة تحرزهم وتحذيرهم من أهل والأهواء، أود أن أقدم بهذا التنبيه المهم.

تنبيه مهم: وهذه المجالسة في زمننا لا يلزم منها حضور مجالسهم أو قراءة كتبهم؛ لأن مفهوم المجالسة تغير في زمننا بسبب ما يسمى بوسائل التواصل الاجتماعي، ومتابعة نتاجهم الفكري الموجود على شبكة الإنترنت، أو المتابعة التي تتم من خلال البث الفضائي.

فيستطيع الواحد في هذا الزمن أن يجالس أهل البدع والأهواء ويرى ويسمع دروسهم وخطبهم ومحاضرتهم ويقرأ كتبهم وهو في بيته، وبينه وبينهم المسافات الشاسعة، وأضف إلى هذا ضعف العلم الشرعي وضعف التمسك بالدين عند المتلقين، وقدرة أصحاب الباطل على الحاجة وتلبس الحق بالباطل؛ ولذا كان الخطر عظيمًا والخطب جليلاً، وحينها نعرف لماذا يحذر السلف من مجالسة أهل الأهواء، ويحرصون على عدم سماع كلامهم مع قوتهم العلمية، وتمكن

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٣٤ / ٦) ح (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٠٥٣ / ٤) ح (٢٦٦٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٨٩ / ١) ح (١٤٣)، وابن حبان في صحيحه (٢٨١ / ١)، ح (٨٠)، وقال في مجمع الزوائد (١٨٧ / ١) ح (٨٨٦): "رواه البزار وأحمد وأبو يعلى، ورجاله موثقون"، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٧ / ١) ح (٢٣٩)، وقال محقق مسند أحمد (٢٨٩ / ١): "سنده قوي".

الدين من قلوبهم، وقدرتهم على المحاجة والمجادلة، إلا أن السلامة لا يعدها شيء، والقلوب ضعيفة، والشبه خطافة، والشياطين حاضرة تمد أصحابها بزخرف القول الذي قال الله عنه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

قال إبراهيم النخعي رحمه الله: "لا تجالسوا أهل الأهواء؛ فإن مجالستهم تذهب بنور الإيمان من القلوب، وتسلب محاسن الوجوه، وتورث البغضة في قلوب المؤمنين"^(١).

وذكر الذهبي رحمه الله: "عن سفيان الثوري عليه رحمة الله: من أصغى بسمعه إلى صاحب بدعة، وهو يعلم، خرج من عصمة الله، ووكل إلى نفسه.

وعنه: من سمع ببدعة فلا يحكها لجلسائه، لا يلقها في قلوبهم.

قلت^(٢): أكثر أئمة السلف على هذا التحذير، يرون أن القلوب ضعيفة، والشبه خطافة"^(٣).

ومعنى كلام الإمام الذهبي رحمه الله: أن السلف يحذرون من سماع كلام أهل البدع؛ لأن القلوب ضعيفة سريعة التأثر بما تسمع، والشبه تخطف القلوب، وتميل بها عن طريق الهدى، ويزينها الشيطان فتزل القدم بعد ثبوتها.

(١) الإبانة الكبرى (٢/ ٤٣٩). والبغضة أي: لا تحبه قلوب المؤمنين. ينظر: الصحاح (٣/ ١٠٦٦-١٠٦٧) مادة (بغض).

(٢) القائل الإمام الذهبي رحمه الله.

(٣) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٦١).

وذكر العلماء رحمهم الله^(١) آثارًا عن السلف في التحذير من مجالسة أهل الأهواء لخطورتها على القلوب، ومن ذلك: "قال أبو قلابة رحمه الله: لا تجالسوا أهل الأهواء -أو قال: أصحاب الخصومات-؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون. ودخل رجلان من أصحاب الأهواء على محمد بن سيرين، فقالا: يا أبا بكر، نحدثك بحديث؟ قال: لا، قال: فنقرأ عليك آية؟ قال: لا، لتقومان عني، أو لأقومنَّه، فقاما. فقال بعض القوم: يا أبا بكر، وما عليك أن يقرأ عليك آية؟!... وقال: خشيت أن يقرأ آية فيحرفانها، فيقر ذلك في قلبي.

وقال رجل من أهل البدع لأيوب: يا أبا بكر، أسألك عن كلمة؟ فولى، وهو يقول بيده: لا، ولا نصف كلمة.

وكان الحسن يقول: شر داء خالط قلبًا -يعني: الأهواء-.

وقال حذيفة: اتقوا الله، وخذوا طريق من كان قبلكم، والله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن تركتموه يمينا وشمالًا لقد ضللتكم ضلالًا بعيدًا -أو قال: مبينًا-"^(٢).

قال رجل لابن سيرين: "إن فلانًا يريد أن يأتيك، ولا يتكلم بشيء، قال: قل لفلان: لا، ما يأتيني، فإن قلب ابن آدم ضعيف، وإني أخاف أن أسمع منه كلمة، فلا يرجع قلبي إلى ما كان"^(٣).

(١) ينظر: الشريعة (١/٤٣٥-٤٤٠)، الإبانة الكبرى (٥/٢٥٤٤-٢٥٤٦)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/١٠١)، (١٥٠-١٥١).

(٢) كل هذه الآثار عن السلف ذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء (١١/٢٨٥).

(٣) الإبانة الكبرى (٢/٤٤٦).

ويروي الآجري بسنده عن مهدي بن ميمون قال: "سمعت محمداً -يعني ابن سيرين- وماراه^(١) رجل في شيء، فقال محمد: إني أعلم ما تريد، وأنا أعلم بالمرء منك، ولكني لا أماريك"^(٢). وانظر إلى هذا الإمام العظيم من أكابر أهل السنة علماً وعملاً، ومع هذا العلم العظيم والقدرة على المجادلة خاف على قلبه من أن تنفذ إليه شبهة فلا يعود كما كان، وتذهب رفته وخشوعه وتلذذه بالعبادة بسبب سماع كلام أهل الباطل، فإنه يمرض القلوب ولو كانت صحيحة، ويفسدها ولو كانت سليمة فالحذر الحذر فإن سماع أو رؤية أهل الباطل تعد عقوبة عند أهل القلوب الحية، فقد دعت أم جريج الراهب على ابنها -لما انشغل بصلاة النافلة عنها- بأن يعاقبه الله برؤية وجوه العصاة من المومسات أي الزانيات، وقد عاقبه الله بذلك لأن رؤية الوجوه المظلمة يسري أثرها على القلب بشيء من الغبش في رؤية الحق، فمن سرح طرفه في تلك الوجوه وسمع لكلامها أصابت بقدر القرب ظلمة في قلبه ينعكس أثرها على نفوره من القرآن وأصحابه، وتؤثر كذلك على صفاء القلب، فتصيبه الكدورة التي تضعف فهمه للقرآن ويعجز عن تدبره، ويضيق الصدر بتلاوته، فلا يجد لذة في تدبره وفهمه، ولا ينتفع بمواعظه وزواجه ووعده ووعيدته، وقد يصل الحال بقلبه أن يتلذذ بالشهوة الحرام من سماع المعازف ما لا يجده عند تلاوته أو سماعه، نسأل الله العافية والسلامة.

(١) أي جادله.

(٢) الشريعة للآجري (١/ ٤٥٣).

المبحث السابع: من آثار عدم تحقيق عمل القلب في الذكر والدعاء، وفيه تمهيد
وعدة مطالب.

التمهيد:

كما سبق معنا مراراً ارتباط عبادة الذكر والدعاء بعمل القلب وبالأخص محبة الله والخوف منه
ورجاؤه، ولهذا إذا حصل الخلل في هذه العبادات القلبية، أدى ذلك إلى الانحراف في هذه
العبادة، وإليك بعض التفصيل في ذلك، في هذه المطالب:

المطلب الأول: الوقوع في الشرك^(١).

إذا حصل خلل في العبادات القلبية من الحب والخوف والرجاء والتوكل ونحو ذلك انعكس أثرها
على عمل الجوارح لأن القلب هو المحرك لها كما مر معنا مراراً حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه
قال: قال ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْعَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ
الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

فيقع في القلوب تعلق بغير الله في عبادة الدعاء التي هي من أعظم العبادات بنص
الحديث «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فيقع الإنسان في
الشرك بدعاء غير الله والاستغاثة والاستعانة بغيره فيما لا يقدر عليه إلا الله كسؤال الأموات
والغائبين من الجن والملائكة والاستغاثة بهم، وطلب كشف الضر منهم ويجعلونهم وسائط بينهم
وبين الله في قضاء الحوائج.

ويدخل في ذلك طلب قضاء الحوائج من شخص حاضر مما لا يقدر عليه إلا الله، كسؤالهم
غفران الذنوب، وهداية القلوب، وتفريج الكربات ونحوه، وسبق الكلام عن أن الدعاء حق
خالص لله، فمن دعا غيره فقد وقع في الشرك.

(١) ومن أراد التوسع في هذا الموضوع العظيم فعليه بكتاب (شبهات المبتدعة في توحيد العبادة) عرض ونقد رسالة علمية
متينة للدكتور عبد الله الهذيل. تقع في ٣ مجلدات ط الرشد.

و"سؤال الميت والغائب نبيًا كان أو غيره من المحرمات المنكرة؛ باتفاق أئمة المسلمين، لم يأمر الله به ولا رسوله، ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولا استحسنته أحد من أئمة المسلمين، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين المسلمين، فإن أحدًا منهم ما كان يقول إذا نزلت به ترة أو عرضت له حاجة لميت يا: سيدي فلان أنا في حسبك، أو اقض حاجتي، كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمن يدعوهم من الموتى والغائبين.

ولا أحد من الصحابة استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موته؛ ولا بغيره من الأنبياء لا عند قبورهم ولا إذا بعدوا عنها وقد كانوا يقفون تلك المواقف العظام في مقابلة المشركين في القتال، ويشتد البأس بهم ويظنون الظنون، ومع هذا لم يستغث أحد منهم بنبي ولا غيره من المخلوقين" (١).

"فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أجل العبادات، بل هو أكرمها على الله كما تقدم، فإن لم يكن الإشراف فيه شركًا، فليس في الأرض شرك، وإن كان في الأرض شرك فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركًا من الإشراف في غيره من أنواع العبادات، بل الإشراف في الدعاء - هو أكبر شرك المشركين الذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة، ويتقربون إليهم ليشفعوا لهم عند الله" (٢).

المطلب الثاني: الوقوع في البدعة.

وقد مر معنا أن الذكر والدعاء عبادة لا تقبل إلا بتحقيق شروط قبول العبادات، والتي منها متابعة النبي ﷺ في هذه العبادات وعدم الخروج عن سنته ﷺ، وإلا وقع الإنسان في البدعة. وسبق توضيح ذلك فيما سبق.

(١) الاستغاثة في الرد على البكري (ص ٢٢١-٢٢٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد (ص ١٧٩).

المطلب الثالث: حصول الرياء والسمعة والعجب.

إذا ضعف عمل القلب من الإخلاص والصدق ومراقبة الله في السر والعلن دبّت أمراض القلوب المفسدة للعبادة والمؤدية إلى وقوع العبد في أمراض الرياء والسمعة والعجب، بسبب تعلق القلب بغير الله، ونحو ذلك من أمراض القلوب، ومظاهر ذلك كثيرة منها على سبيل المثال:

- ١- أنه يريد بعمله من ذكر ودعاء مدح الناس وثناؤهم عليه.
 - ٢- كثرة ذكره ودعائه إذا علم أن الناس يرونه، وهو بخلاف ذلك إذا علم أنه لا يراه أحد.
 - ٣- يحرص على أذكار وأدعية مبتدعة لم ترد في الكتاب والسنة من أجل التقرب من الناس كمثّل مشايخ الطرق الصوفية، فإن من يتبعهم يردد ما يعلمونه من أذكار مبتدعة لأجل إرضائهم، وهو يعلم أن فيها مخالفة للسنة، وهكذا أصحاب البدع يرهبون اتباعهم حتى لا يفارقوا طريقهم.
- ومن أعظم ما يخيف المؤمن من هذه الآفات ما يحدث من خطر عظيم على من يقع فيها وما يحدث له يوم القيامة من موقف مخيف تنخلع منه القلوب من شدة هوله، وتأمل معي في هذا الحديث العظيم الذي ينقل هذا المشهد من يوم القيامة، هذا المشهد الذي أبكى الصالحين بكاء عظيماً وهم قد بلغوا في الصلاح مبلغاً عظيماً من أصحاب النبي ﷺ بكى منه أبو هريرة رضي الله عنه واغمي عليه، وبكى منه معاوية رضي الله عنه بكاء شديداً، فكيف بمن عداهم؟ دَخَلَ شَفِيِّ الْأَصْبَحِي الْمَدِينَةَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: أَبُو هُرَيْرَةَ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلَا قُلْتُ لَهُ: أَسَأَلُكَ بِحَقِّ وَبِحَقِّ لِمَا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَفْعَلُ، لِأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ، ثُمَّ نَشَعَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْعَةً فَمَكَّنَّا قَلِيلًا ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: لِأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَعَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْعَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ أَفَاقَ فَمَسَحَ وَجْهَهُ فَقَالَ: أَفْعَلُ، لِأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا وَهُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا

مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَعَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْعَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ مَالَ خَارًّا عَلَى وَجْهِهِ فَأَسْنَدَتْهُ عَلَى طَوِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِي: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آثَاءَ اللَّيْلِ وَأَنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أُوسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعَكَ تَحْتَاجَ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِي مَادَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رُكْبَتِي فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وَقَالَ الْوَلِيدُ أَبُو عَثْمَانَ: فَأَخْبَرَنِي عَقْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ «أَنَّ شَقِيًّا، هُوَ الَّذِي دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا» قَالَ أَبُو عَثْمَانَ: وَحَدَّثَنِي الْعَلَاءُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ، أَنَّهُ كَانَ سَيَافًا لِمُعَاوِيَةَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ، فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: " قَدْ فُعِلَ بِهَؤُلَاءِ هَذَا فَكَيْفَ بِمَنْ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ؟ ثُمَّ بَكَى مُعَاوِيَةُ بُكَاءً شَدِيدًا حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ هَالِكٌ، وَقُلْنَا قَدْ جَاءَنَا هَذَا الرَّجُلُ بِشَرٍّ، ثُمَّ أَفَاقَ مُعَاوِيَةُ وَمَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ١٥ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ

فِ الْأَخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِيطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿هود: ١٥ - ١٦﴾^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ " ^(٢).

قال سفيان الثوري رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿وَبَدَّالْهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:

٤٧]: "ويل لأهل الرياء! ويل لأهل الرياء! هذه آيتهم وقصتهم" ^(٣).

وقال النبي ﷺ: «مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ» ^(٤).

(١) أخرجه الترمذي (٥٩١ / ٤) ح (٢٣٨٢)، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب"، وابن حبان (١٣٦ / ٢) ح (٤٠٨)، والحاكم في المستدرک (٥٧٩ / ١) ح (١٥٢٧) وصححه وأقره الذهبي، وابن خزيمة (١١٨٨ / ٢) ح (٢٤٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٤ / ١) ح (٢٢)، وصححه إسناده شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لصحيح ابن حبان (١٣٧ / ٢) ح (٤٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٥١٣ / ٣) ح (١٩٠٥).

(٣) تفسير القرطبي (٢٦٥ / ١٥).

(٤) أخرجه البخاري واللفظ له (١٠٤ / ٨) ح (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٢٨٩ / ٤) ح (٢٩٨٦).

وذكر الخطابي رحمة الله في معني الحديث: أن من عمل عملاً على غير إخلاص، وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعه، جزاه الله على ذلك بأن يشهره ويفضحه، ويظهر ما كان يبطنه^(١). وأضاف ابن حجر إلى ما ذكره الخطابي، فقال: "وقيل: من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس، ولم يرد به وجه الله، فإن الله يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم، ولا ثواب له في الآخرة ومعنى «يرائي»: يطلعهم على أنه فعل ذلك لهم لا لوجهه"^(٢). وعن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ؛ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ تُحَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟!»^(٣). وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكَ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»^(٤).

(١) ينظر: أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري للخطابي (٢٢٥٧/٣).

(٢) فتح الباري (١١ / ٣٣٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤٣ / ٣٩ - ٤٤) ح (٢٣٦٣٦)، وجوّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (١ / ٣٤) ح (٥٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد في كتاب الإيمان، باب ما جاء في الرياء (١ / ١٠٢) ح (٣٧٥): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١ / ١٢٠) ح (٣٢)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند (٣٩ / ٤٤) ح (٢٣٦٣٦): "إسناده حسن".

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرفائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٤ / ٢٢٨٩) ح (٢٩٨٥).

وكان عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يُحَدِّثُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَمِعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ، وَصَغَرُهُ وَحَقَرُهُ»، قَالَ: فَذَرَفْتُ عَيْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ^(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَمِعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَحَقَرُهُ وَصَغَرُهُ»^(٢).

(١) أخرجه أحمد (٤٣٠ / ١١) ح (٦٨٣٩)، وقال في مجمع الزوائد في كتاب الزهد، باب ما جاء في الرياء (٢٢٢ / ١٠) ح (١٧٦٦٠): "رجال أحمد، وأحد أسانيد الطبراني في الكبير رجال الصحيح"، وقال محقق المسند (٤٣٠ / ١١) ح (٦٨٣٩): "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥٦٦ / ١١) ح (٦٩٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٧ / ١) ح (٢٥)، وقال محقق المسند (٥٦٦ / ١١) ح (٦٩٨٦): "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

المطلب الرابع: تسلط الشيطان عليه، وتمكنه منه.

وحين يضعف تعلق القلب بالله تعالى، ويضعف حب الله في القلب، حينها يعاقب بالغفلة عن ذكر الله الذي يحبه ويرضاه فتتسلط عليه الشياطين بسبب ذلك، قال تعالى: ﴿أَسْتَحْوِذُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ ذِكْرُ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُو شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُو قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ۖ﴾ [٣٧] حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ۖ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۖ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩].

وهذا التسليط للشياطين عليهم عقوبة لهم لأنهم أعرضوا عن ذكر الله وعميت قلوبهم عنه. وقد سبق في فوائد الذكر ما يغني عن اعادته هنا.

وكما سبق الحديث حيث يقول ﷺ: «وَأْمُرْكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ عَلَىٰ حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْزَرَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْزِرُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ».

المطلب الخامس: الغفلة عن الآخرة.

إذا مرض القلب وتسلطت على صاحبه الشياطين فأنسته ذكر الله غفل ولا شك عن الاستعداد لآخرفته، وركن إلى هذه الحياة الدنيا وتعلق قلبه بها، فغرتة عن آخرفته، ونسي الله والدار الآخرة، فنسيه ربه وتركه للهوى والشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

"والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوما نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبنا، لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن

طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون^(١).

وقال تعالى لمن غفل عن الآخرة: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ^ط وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

"أي: يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له، ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ^ط﴾ أي: إنا سنعاملكم معاملة الناسي؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَنَسُّكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]"^(٢).

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٥٣).

(٢) تفسير ابن كثير - ت السلامة (٦ / ٣٦٢).

فهرس

المقدمة	٢
أثر عمل القلب على عبادة الذكر والدعاء وفيه تمهيد وعدة مباحث	٤
التمهيد: وفيه مسائل متعلقة بالذكر والدعاء	٤
المسألة الأولى: مفهوم الذكر والدعاء والعلاقة بينهما	٤
المسألة الثانية: سعة مفهوم الذكر الشرعي	٧
المسألة الثالثة: كيف يكون الذكر شرعياً	١١
القسم الأول: المأثور، وله نوعان:	١١
النوع أول : المأثور من الأذكار والأدعية، وضوابطها	١١
أولاً: المقصود بها وأمثلة عليها	١١
ثانياً: ضوابط الأذكار والأدعية المأثورة	١٢
النوع الثاني: الأذكار المطلقة، وتفاضلها	١٣
القسم الثاني: غير المأثور وضباطه	١٤
ثانياً: ضوابط الذكر الذي يخترعه العبد	١٧
المسألة الرابعة: التفاضل بين الأذكار المقيدة والأذكار المطلقة	١٨
المسألة الخامسة: من آداب الذكر والدعاء	١٩
المسألة السادسة: طلب العلم الشرعي وصلته بالذكر	٤٥
المبحث الأول: ملخص في إثبات أثر عمل القلب، وأهميته، وفيه مطالب	٥٢

- المطلب الأول: من أدلة الكتاب والسنة في إثبات أثر عمل القلب. ٥٢
- المطلب الثاني: أهمية عمل القلب..... ٥٧
- المطلب الثالث: الآثار العامة لعمل القلب على العبادات، ونجملها في الآتي: ٥٨
- المبحث الثاني: من أعمال القلوب التي لها ارتباط وثيق بعبادة الذكر والدعاء، وفيه تمهيد وعدة مطالب. ٦٠
- التمهيد: الارتباط الوثيق بين عمل القلب وعبادة الذكر والدعاء. ٦٠
- المطلب الأول: الإخلاص والمتابعة..... ٦٠
- المسألة الأولى: الإخلاص وأثره على عبادة الذكر والدعاء. ٦٠
- المسألة الثانية: المتابعة وأثرها على عبادة الذكر والدعاء..... ٦٥
- المطلب الثاني: المحبة وأثرها على عبادة الذكر والدعاء. ٦٨
- المطلب الثالث: الخوف والخشية والرجاء وأثرها على عبادة الذكر والدعاء، وفيه مسألتان. ٧٢
- المسألة الأولى: الخوف والخشية. ٧٢
- المسألة الثانية: الرجاء..... ٧٧
- المطلب الرابع: اليقين وأثره على عبادة الذكر والدعاء. ٨٠
- المطلب الخامس: التوكل وأثره على عبادة الذكر والدعاء..... ٨٨
- المطلب السادس: الورع وأثره على عبادة الذكر والدعاء. ٩٣
- المطلب السابع: الصبر وأثره على عبادة الذكر والدعاء..... ٩٧

- المبحث الثالث: أعمال لها ارتباط وثيق بصلاح القلب وزيادة أثره على عبادة الذكر والدعاء، وفيه عدة مطالب ١٠١
- المطلب الأول: تحقيق التوحيد ١٠١
- المطلب الثاني: كثرة التوبة والاستغفار ١٠٣
- المطلب الثالث: مجاهدة النفس على الإخلاص والمتابعة ومحاسبتها على ذلك ١٠٧
- المطلب الرابع: تعلق القلب بالله وأثره على عبادة الذكر والدعاء ١١٢
- المطلب الخامس: تعلق القلب بالدار الآخرة ١٢٠
- المبحث الرابع: أحكام تخص عبادة الذكر أو الدعاء ولها تعلق بعمل القلب، وفيه عدة مطالب ١٢٣
- المطلب الأول: أهمية ذكر القلب ١٢٣
- المطلب الثاني: أعظم الذكر ما اجتمع فيه القلب واللسان ١٢٣
- المطلب الثالث: ذكر اللسان والدعاء بدون حضور القلب ١٢٤
- المطلب الرابع: التضرع في الدعاء وعلاقته بالقلب ١٢٦
- المطلب الخامس: الخوف والطمع عند الدعاء ١٢٨
- المبحث الخامس: من فوائد وثمرات تحقيق عمل القلب في عبادة الذكر والدعاء، وفيه عدة مطالب ١٣١
- المطلب الأول: الشعور بمعية الله لعبده ١٣١
- المطلب الثاني: تحقيق التوحيد ١٣٧

- المطلب الثالث: ذكر الله لعبده..... ١٣٧
- المطلب الرابع: يطرد الشيطان ويقمعه، ويكون العبد في حصن حصين منه. ١٣٨
- المطلب الخامس: خشوع القلب وطمأنينة التي تؤثر على الروح والجسد. ١٣٩
- المطلب السادس: زيادة تعلق القلب بالله والدار الآخرة. ١٤٠
- المطلب السابع: كثرة الذكر والدعاء أمان من النفاق..... ١٤٠
- المطلب الثامن: من أسباب زيادة الإيمان. ١٤١
- المطلب التاسع: الحفظ والحماية ورعاية الله له..... ١٤٢
- المطلب العاشر: وجل القلب والخوف من الله..... ١٤٢
- المطلب الحادي عشر: الثقة بالله وحسن الظن به. ١٤٣
- المطلب الثاني عشر: الثبات في المعركة والنصر والتأييد..... ١٤٤
- المطلب الثالث عشر: صلاح الظاهر والباطن..... ١٤٦
- المطلب الرابع عشر: الثبات حتى الممات وحسن الخاتمة. ١٤٨
- المطلب الخامس عشر: الشعور القلبي بالقيمة العظيمة لعبادة الذكر والدعاء، ومن ذلك:
- ١٥٢
- ١- خير من الدنيا وما فيها وما عليها..... ١٥٢
- ٢- خير الأعمال..... ١٥٣
- ٣- الدعاء هو العبادة..... ١٥٣
- ٤- أكرم شيء على الله..... ١٥٤

- المبحث السادس: من أسباب الانحراف في عبادة الذكر والدعاء، وفيه عدة مطالب. ١٥٨
- المطلب الأول: الجهل والإعراض عن الكتاب والسنة. ١٥٨
- المطلب الثاني: من أسباب تعلق القلب بغير الله. ١٦٥
- الأول: عدم تقدير الله حق قدره، ونقل حقه تعالى - من التقدير له تعالى حق التقدير -
لغيره. ١٦٥
- الثاني: الغلو في الصالحين من الأنبياء والملائكة والأولياء والجن، وهو أعظم باب للشرك
والكفر بالله والانحراف في العبادات، ومنها عبادة الذكر والدعاء. ١٧١
- الثالث: الغلو في قبور الصالحين والتعلق بها - ونقل حق الله من تقديره حق التقدير إلى
أصحاب القبور - يجعلها من الأوثان التي تعبد من دون الله. ١٧٢
- المطلب الثالث: دور علماء السوء وأئمة الضلال. ١٨٣
- المطلب الرابع: تزيين دعاة الباطل للأدعية المحدثه، واشغال اتباعهم بها عن الذكر الشرعي.
..... ١٨٨
- المطلب الخامس: التعصب، والتقليد الأعمى، والتشبه بأهل الكفر. ١٩١
- المطلب الخامس: اتباع الهوى ومجالسة أهل البدع والأهواء. ١٩٤
- المبحث السابع: من آثار عدم تحقيق عمل القلب في الذكر والدعاء، وفيه تمهيد وعدة مطالب.
..... ١٩٩
- المطلب الأول: الوقوع في الشرك. ١٩٩
- المطلب الثاني: الوقوع في البدعة. ٢٠٠
- المطلب الثالث: حصول الرياء والسمعة والعجب. ٢٠١

المطلب الرابع: تسلط الشيطان عليه، وتمكنه منه. ٢٠٦

المطلب الخامس: الغفلة عن الآخرة. ٢٠٦